الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عين تموشنت بلحاج بوشعيب
كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية
قسم اللغة والأدب العربي

Ministère de L'enseignement Supérieur et de La Recherche Scientifique
Université Ain Témouchent Belhadj Bouchaib
Facultés des Lettres et Langues et Science Sociales
Département langue et lettre arabe

مضامين الرحلة وتشكيلها الفني عند ابن حمادوش الجزائري (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة الماستر

تخصص: أدب جزائري

إشراف الأستاذة الدكتورة: سمية حطري

من إعداد الطالبين:

1- نجاري فاطمة

2- مصمودي إكرام

اللجنة المناقشة المكونة من الأعضاء الآتي ذكرهم:

الاسم واللقب	الرتبة	مؤسسة الانتماء	الصفة
د/ بخيتي عيسى	أستاذ محاضر – أ–	جامعة بلحاج بوشعيب– عين تموشنت	**رئيسا**
أ.د/ سمية حطري	أستاذة التعليم العالي	جامعة بلحاج بوشعيب– عين تموشنت	**مشرفا، مقررا**
د. عزي مريم	أستاذة محاضرة –ب–	جامعة بلحاج بوشعيب– عين تموشنت	**ممتحنا**

السنة الجامعية: 2023/2022

بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر والتقدير

نتقدم بجزيل الشكر والتقدير "**حطري سمية**" التي أغرقتنا بجميل تفانيها وطول صبرها، ودقة ملاحظاتها وغزارة نصائحها أستاذة جزاك الله عنا كل خير

وشكرا لكرمك وتوجيهاتك القيمة ونأمل أن نكون قد وفقنا في انجاز هذا البحث،

وأننا قد كنا عند حسن الظن.

إهداء

بعد طول انتظار تحقق الحلم وتخرجنا وقبل كل شيء

الشكر لله تعالى، وأهدي ثمرة تعب إلى اللذان قال فيهما الله

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) الإسراء الآية: 23

إلى نور حياتي ومنبع حنان أرقى وأطيب وأجمل قلب إلى من علمتني أن الحب ليس له عمر وأن العطاء ليس له حدود إلى من علمتني الأخلاق وغرست في قلبي القوة والعزيمة إلى أعظم وأطيب إنسانة حفظها الله وأطال في عمرها إلى أعز إنسانة فوق الأرض والكون بأكمله "**أمي قرة عيني**"

إلى رمز الصبر والعطاء إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد طريق علم لي إلى الذي بذل جهد السنين من أجل أن أعتلي سلالم النجاح مشعل دربي ونور قلبي الغالي حفظه الله ورعاه لي إلى أعظم رجل في الكون كله "**أبي الغالي**"

إلى شموع حياتي ومصدر قوتي في الحياة إخوتي حفظهم الله.

"**إكرام**"

إهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى التي وضعت الجنة تحت أقدامها إلى رمز التضحية والوفاء إلى التي سأعيش من أجل إسعادها إلى

"أمي زهراء الغالية"

وإلى سندي وسر قوتي إلى الذي أفنى عمره من أجلي إلى رمز دعامتي إلى

"أبي العزيز الغالي"

وإلى من لا تكتمل سعادتي إلا بهم إخوتي الأعزاء حفظهم الله ورعاهم.

"فاطمة"

مقدمة

يعد أدب الرحلة واحد من أقدم أنواع الآداب وهو الأكثر تشويقا واكتشافا للعالم، وقد لقي هذا الأدب اهتماما واضحا من العرب قديما ومن جميع الشعوب إذ أن الرحلة تسجل جغرافيا المكان وتصف الظروف التاريخية والاجتماعية في حقبة زمنية معينة بشكل دقيق جدا وتعرض التفاصيل التي عاشها وعاصرها الرحالة خلال سفره، ومن هنا استحدث الرحلات متعتها حيث أن كل من يقرأ هذا الأدب يشعر بالمتعة كبيرة ويجني فائدة عظيمة بالنظر إلى أنه يخوض تجربة الرحلة ويعيش أحداثها وهو في مكانه، وتعد رحلة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال من أهم الرحلات في تراثنا الجزائري القديم ومن أكبر الأعمال التي أنجزها ابن حمادوش في تاريخه حيث جمعت بين التحصيل العلمي والتجارة وطلب الرزق.

وهدفنا في هذه الدراسة هو التعرف بما ألمت به الرحلة في جوانبها المتعددة والمختلفة من جهة والتعرف بنمط الحياة الجزائرية والمغاربية خلال العهد العثماني وكذا معرفة العادات والتقاليد سواء في الجزائر أو المغرب وأهم العلماء الذين أخذ عنهم الرحالة ومن أهم الأسباب التي دفعت بنا لاختيار هذا الموضوع:

أهمية فن الرحلة عند العرب في تصوير البلدان ونقل مختلف ثقافات وعادات الشعوب، وما تحويه هذه الرحلة من موضوعات ومضامين شيقة ومتنوعة وكل هذه الأسباب جعلتنا نسلط الضوء على هذا الموضوع ونخصه بدراسة تحمل عنوان "مضامين الرحلة وتشكيلها الفني عند ابن حمادوش الجزائري" ومن هنا نطرح الإشكال التالي:

كيف كان أدب الرحلة في الجزائر خلال العهد العثماني؟ وما هي أهم الموضوعات ومضامين رحلة ابن حمادوش وتشكيلها الفني؟

للإجابة على هذه الإشكالية لابد من طرح بعض الأسئلة الفرعية وهي كالتالي:

مـا مفهـوم الرحلـة؟ وكيـف كـان تـأثير البيئـة الجزائريـة علـى أدب الرحلـة خـلال العهـد العثماني؟ وما هي أنواع الرحلات الجزائرية في العهد نفسه؟ وكيف هي المضامين التي حوتها هذه الرحلة؟ وما هي خصائص هذه الرحلة من حيث تشكيلها وبناء الفني؟

وعلى هذا اعتمدنا في هذا البحث عن خطة متمثلة في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

مقدمة: عرضنا فيها الموضوع والإشكالية.

الفصل الأول: أدب الرحلة في العهد العثماني، الرحلة في مفهومها البيئة الجزائرية خلال ذلك العهد، الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي، الرحلات الحجازية والعلمية.

الفصل الثاني: المعنون بمضامين الرحلة في اللسان المقال فقد تناولنا فيه دوافع الرحلة الجزائرية في العهد العثماني وموضوعات رحلة، رسالة في الكرة الفلكية، كشف الرموز، تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج، وتطرقنا كذلك إلى عادات وتقاليد في المغرب والجزائر أخبار العلماء، العلماء الذين أخذ عنهم المساجد الغريبة التي رآها، الحوادث.

أما الفصل الثالث: وعنوانه التشكيل الفني للرحلة في لسان المقال، درسنا في هذا الفصل فنون النثر اختصت بدراسة كل من المقامات، الرسائل التقاريظ، عقود الزواج، إجازات، وكذا أغراض الشعر، المدح، الحنين، الفخر والهجاء، الرثاء لغة السرد في الرحلة، حوار، وصف الأنا والآخر في الرحلة.

خاتمة: تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال الفصول الثلاثة.

أما عن المنهج المتبع في الدراسة فقد اعتمدنا على المنهج الوصفي والتحليلي الذي اقتضنا من تتبع مضامين الرحلة وتشكيلها الفني وتحليل عناصرها بغية تقريبها للقارئ.

وبعد اختيارنا موضوع وإطلاعنا على الرحلة اكتشفنا أن هناك دراسات سابقة لهذا الموضوع ولكنها قليلة جدا خاصة رحلتة ابن حمادوش ومن الدراسات التي استفدنا منها نذكر الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني وحدود اسهامات في تدوين تاريخ الجزائر الحديث للباحثة "حوتية عفيفة" ومن المراجع التي اعتمدنا عليها في دراستنا:

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2
- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، ابن حمادوش
- أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري

وقد واجهتنا خلال بحثنا هذا بعض الصعوبات المتمثلة في قلة الدراسات في هذه الرحلة الخاصة وقد كان لاستاذتنا الدكتورة "سمية حضري" الفضل في تقليل هذه الصعوبات وكذلك الأستاذ الفاضل "عيسى بخيتي" وبذلك فإننا نتوجه إليها بالشكر الخالص على اشرافها وتوجيهاتها الحكيمة ولكل من ساعدنا من قريب أو بعيد ونوجه الشكر كذلك لأعضاء لجنة المناقشة المحترمة، والشكر أولا وأخيرا لله تعالى على منه وتوفيقه لنا.

الطالبتين: نجاري فاطمة

مصمودي إكرام

عين تموشنت في 2023/5/13

الفصل الأول

أدب الرحلة في العهد العثماني

تمهيد:

عرف الإنسان مند القدم بحثه وشغفه للترحال فقد قيل ولد الإنسان رحالا وذلك لما استدعته الحاجة للبحث عن الظروف المعيشية الملائمة ومناسبة له، وقد استطاع أن يفكر في جوانب أخرى لتلك الرحلات التي كان يقوم بها، فقد أضحى إلى اكتشاف المجهول وما تحمله من أماكن وخيارات وكنوز والرغبة في المعرفة ما في العالم من عادات وتقاليد وأخلاق هذا ما اندرج تحت اسم فن الرحلة، الذي عرفه العرب منذ الإسلام بدءً برحلة الرسول رحلة الإسراء والمعراج، رحلات التجار المسلمين إلى الشام وبغداد وغيرها من أقطار العربية، وبهذا احتلت الرحلة مند القدم منزلة رفيعة وأصبحت فنا من فنون الشائعة في معظم بلاد العالم وهي نبعت من الوصف الظريف للواقع والسرد الفني للمغامرة الإنسانية والعواطف المحركة للبشر والتي تنبع من أنواع الشخصيات تبرزها إذ أصبحت الحلقة التي عملت على اكتشاف الذات الإنسانية واختراق الحواجز بين مختلف الشعوب ولأقوام كما أن فن الرحلة ولد في دهن الإنسان العديد من الاستفسارات الكثيرة التي قادته إلى ولادة فن جديد من بين الفنون الأدبية المختلفة ألا وهو أدب الرحلة هذا الأدب الذي عرف ازدهارا في الأدب العربي مند القرون الأولى حيث وصف فيه الرحلة ما يرون ومن يرون وجعلوا كتبهم فيه تأخذ طابعا أدبيا، فنيا، تاريخيا.

1. الرحلة في المفهومين اللغوي والاصطلاحي:

لقد تعددت المفاهيم اللغوية لمادة الرحلة، واحتلت قسما كبيرا في معظم المعاجم العربية وحظيت بشرح واف، إلا أن هذه المفاهيم كلها تصب في حقل واحد وهو الترحال والارتحال والتنقل.

1.1 الرحلة لغة:

حظيت مادة "رحل" في معجم "لسان العرب" لابن المنظور بشرح واف وجاءت كالتالي الترحيل والرحال بمعنى الأشخاص والإزعاج ويقال رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا، ورحل، رحول وقوم رَحَلَ أي يرتحلون.[1]

كثيرا، ودجل رحّال: «عالم بذلك مجيد له» فقد تعدّدت مفاهيم "الرّحلة" غير أنها تصب في مفهوم واحد وهو الترحال والارتحال أي الانتقال من مكان إلى آخر.

وَرَدَ لفظ "الرّحلة" في موضع آخر بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر "الترحل ولارتحال": الانتقال وهو الرّحلة والرّحلة اسم للارتحال لسير لقد زخرت اللغة العربية بمفردات ومصطلحات لها دلالات مختلفة فهي تختلف في معناها من كلمة إلى أخرى.

ومن معاني الرّحلة التي وردت في لسان العرب هي السفرة الواحدة كما أشار إليها ابن منظور الرحلة السفرة الواحدة. ربّما تعتبر الرّحلة سفرة واحدة كون الأولى تصبح وكأنها مرحلة انتقالية في حياة الرّحالة ولو كانت هناك رحلة ثانية لن يكون لها الانطباع نفسه بالنسبة لنفسية الرّحالة.[2]

إن لفظ الرحلة يطلق على عدة معان، فقد جاءت بمعنى السير ولانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه، وبمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه أو اقتراب وقت الرّحيل، ولهذه المعاني كلها لفظ رحل يطلق على من انتقل من مكان لآخر ومنه أخذ لفظ

[1] ابن المنظور: لسان العرب، تج عبد الله علي الكبير وآخرون مج 3، ج 18، دار المعارف، القاهرة د/ط، ص 1609.

[2] ابن منظور، لسان العرب، ص1610.

رحال: وهو الشخص المنتقل من مكان لآخر مع اختلاف تعاريف "الرّحلة" أصبحت وجهة أو مقصدا يقصده المرتحل حتى يتطلع إلى ثقافات بلدان مختلفة.

وجاء في "مقايس اللغة" لابن فارس في مادة "الرحل" رحل الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مضي في السفر، يقال رحل يرحل رحلة وجمل رحيل: ذو رُحلة يضم الراء وكسرها إذا كان قويا على الرحلة والرحلة الارتحال والراحلة المركب من الإبل ذكرا كان أو أنثى، ورحله أضعنه من مكانه ومعنى الرحلة والرّحلة القوة على السير.[1]

كما جاء في قاموس المحيط للفيروز أبادي في نفس المادة: رحل مركب البعير كالراحلون ارحل، والرحلة ككتابة: السرج أو من جلود هكذا لا خشب فيها يتخذ للركض الشديد وبعير دو رحلة بالكسر والضم: قوي وجمل رحيل قوي على السير، وارتحل البعير: سار ومضى والقوم عن المكان انتقلوا والاسم الرحلة بالضم والكسر.[2]

وما يمكن ملاحظته من خلال عرض مادة رحل ومشتقاتها في مختلف المعاجم أن هذه المادة أخذت حيزا معتبرا في معجم لسان العرب امتد من الصفحة 1608 إلى الصفحة 1611 في المجلد الثالث بثلاثة أعمدة للصفحة الواحدة كما كان لها حضور أيضا في المعجمين الآخرين "المحيط ومقياس اللغة".

وكل مشتقات مادّة رحل كانت توحي بالسفر باعتباره تدور حول متطلباته الأساسية التي يمثلها: كفعل الحركة والانتقال من جهة إلى أخرى، والوسيلة أو المركب والقوة والجهد وهذه كلها من متطلبات الرحلة كسفر.

---

[1] ابن فارس، مقياس اللغة: تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج2، د.ط، 1979، مادة "الرحل"، ص.ص497-498

[2] نجم الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشبرازي، القاموس المحيط، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979، مادة "رحل" باب اللام، فصل الراء، ص 371.

1-2 الرحلة اصطلاحا:

وجود الإنسان على هذه الأرض يفرض عليه أن يكون دائم الحركة كثير التنقل وان لاقى في دلك الجهد والعناء، وكابد الآلام والشفاء فتلك طبيعية البشر ومتطلبات الحياة والرحلة كما تمت الإشارة إليها آنفا، هي قطع مسافة معينة بين نقطتين في فترة زمنية محددة وغرض محدد ما يؤكد ما يحرص عليه كثير من المهتمين بدراسة الرّحلات، من أن الرحلة الحقيقية هي تلك التي تأسس على القصيدة لذلك يشرط أن يكون لها نقطة انطلاق معلومة ونقطة وصول محددة.[1]

يشترك المفهومان اللغوي والاصطلاحي للرّحلة في الحركة على أنها لون أدبي ذو طابع قصصي يحمل فائدة للمؤرخ والباحث والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم، وهي ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة الظروف والأوضاع واكتشاف المعالم والأقطار ووصفها والحكم عليها، فهي إذن وصف لكل ما انطبع من ذلك وسواه في دهن الرحالة عبر مسار رحلته وفي احتكاكه بالمحيط يتآزر في ذلك الواقع والخيال، وأسلوب القصّ والحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية وغيرها.[2]

يمكن اعتبار الرّحلة تجربة تعلن عن سرد الأسفار و تتضمن معنى الذهاب بعيدا عن الأوطان، حيث يتم التعبير عن هذه التجربة من خلال الأدب، مما يؤدي إلى نوع من الاندماج بين زمن التجربة وزمن تدوينها، يفضي إلى تشكيل نوع من التداخل والتكامل بينما يراه الكاتب بعينه، وما يمارسه الخيال للمتلقي، وهو يعكس توصلا من نوع خاص،

[1] عبد الرحمان مؤدن، عبد الرحيم بنحادة،السفر في العالم العربي الإسلامي سلسلة ندوات ومنظرات، مشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2003، ص 11.

[2] ياقوت الحمدي، شهاب الدين عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ج2، دار صادر، بيروت، د/ط، 1977، ص 420

يحركه دافع نفع الغير وتخليد السفر، عبر نقل هذا الأخير من حيز الأشواق والرقائق، إلى صفحات الأوراق.

إن معنى الرحلة في الاصطلاح: يستقصي تحديد معناه بدقة، لأنها لا تتضمن فقط ما هو أدبي، ولكن تشمل أيضا على ما هو تاريخي جغرافي وعلمي.. وغير ذلك، حيث يقتضي التأليف في المرحلة ثقافية واسعة الدقة في الملاحظة، كما أن البحث فيها لا يخلوا من الصعوبات، لأن الرحلة تجتمع فيها فنون عدّة وموضوعات جمّة.[1]

ولقد عرّف الإمام الغزالي السفر والرحلة بأنهما: "نوع حركة ومخالطة" أو "نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة" وأوضح أن الفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب وأن الإنسان لا يسافر إلا لغرض، والغرض هو المحرك.[2]

وعرّفها "بطرس البستاني" بأنها: انتقال واحد، أو جماعة من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة، وأسباب متعددة.[3]

وتقدم "د/ صلاح الدين الشامي" خطوات حين عدّها "انجازا أو فعلا فردّيا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، وإسقاط الفاصل المعين بين المكان ومكان الأخر، ويأتي هذا الإنجاز من اجل هدف معين، ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر.[4]

---

[1] ينظر: خالد التوزاني، مجلة تاريخ العلوم، الأمن الروحي في الرحلات الصوفية المغربية، جامعة فاس المملكة المغربية، العدد الرابع، ص 19.

[2] ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعة المصرية، مكتبة الوفاء، ط 1، 1995، ص 24.

[3] الطاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني في أطروحة الدكتورة: تحت إشراف العيد جلولي، جامعة الجزائر، في عام 2014

[4] المصدر نفسه، ص20.

وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان وترضيه، وقد تكون احترافيا يخدم حاجة الإنسان ويشيعه ولكنها تكون في حالتين استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة تدعو بكل الإلحاح للحركة والتنقل.

التعريفات السابقة كلها تجمع على أن الرحلة في جوهرها حركة، وهذه الحركة ذات هدف وإلا كانت سفها، قد تحقق وقد لا يتحقق وسيتم في حالتين كلتهما اكتساب خبرات عملية وفكرية ناجمة عن مخالطة، وبذلك يتم تقبل بين الرّحلة في اللّغة والاصطلاح يجمعها على أنهما "حركة".

لقد أسهم الجزائريون مساهمة واضحة في كتابة الرحلات ولاسيما خلال القرن الثامن عشر (18) وكانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج، وبذلك تكون رحلات حجازية ومنها ما كانت بغرض طلب العلم، أي أن أصحابها يقومون بها بغرض طلب العلم وزيادة معارف العلمية...الخ[1]

لقد شهدت فترة العهد العثماني بروز العديد من الرحالة الجزائريين الذين اخذوا يجوبون بقاع عالم، لأغراض متعددة فكانوا يدونون كل ما يقولونه في رحلاتهم، إلا أن الحديث عن الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، يأخذنا لحديث عن العلاقة الرحلة بالواقع من الجهة، وعن البيئة الجزائرية بمختلف مظاهر من جهة أخرى.

2- البيئة الجزائرية في العهد العثماني:

لما كانت الرحلات محل الدراسة تنتمي جميعها إلى فترة حكم العثمانيين في الجزائر فان معرفة بيئة هذا العهد تصبح ضرورة لابد منها قبل الخوض في تعامل مع هذه الرحلات لقد دامت فترة حكم العثمانيين في الجزائر، ما يزيد على الثلاثة قرون باثني

[1] ينظر: أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر التقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ج2، ط1، 1998، ص 381.

عشر سنة أو يزيد بقليل، وهي فترة طويلة، لاشك أن تأثيرها على الحياة الجزائريين في مختلف المجلات سيكون كبيرا عموما، وتأثير معالم البيئة العثمانية التي عاش فيها الرحالة الجزائريين خصوصا.

2-1 الواقع السياسي:

إن الحقيقة تثبت أن الجزائريين قبل الحكم العثمانيين كانوا يعيشون الظلم والقهر حياة اضطراب وعدم أمان فكانوا دائما في صراعات مع الذين أرادوا الفتك بهم واستعمارهم من الصليبين هذه الظروف التي حتمت عليهم الاستغاثة التي استجاب لهم العثمانيون.

وقد كان هذا الموقف منهم موقفا دينيا بالدرجة الأولى وهو ما يضيعهم في صورة المناصر للدين المدافع عنه وعن أهله ولعل ذلك هو السر الذي ساعدهم وسهل عليهم الدخول إلى الجزائر ووجود القبول عند أهلها وهي العصية على مدى التاريخ على غزاتها والطامعين فيها.

إن الحديث عن العهد العثماني الذي سيطر فيه العثمانيون على الحكم في الجزائر يجدوا الإشارة إلى أن هؤلاء، رغم أنهم غرب عن البلاد، "إلا أنهم لم يكونوا مستعمرين "لأنهم لم يملكوا أرضا، ولا أبعدوا مزارعا عن مزرعته ولم يكونوا محتلين".[1]

و"يطلب من الجزائريين أنفسهم لحمايتهم أولا، والدفاع عن ممتلكاتهم ثانيا والذود عن دينهم الحنيف المشترك ثالثا، وقبل كل شيء".[2]

[1] احمد توفيق المدني، مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار، شركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1974، ص 8.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 11

إن التآلف والتوافق بين العثمانيين بعد تأسيس حكمهم، وترسيخ نظامهم نظروا للجزائريين نظرة الغالب للمغلوب، وعاملوهم على أساس أنهم أصحاب الفضل عليهم فلحق بالجزائريين التهميش السياسي، العسكري، الاحتمالي، ما أرغم الكثير على الارتحال ومغادرة الوطن تارة، واعتزال الحياة السياسية ولاجتماعية تارة أخرى.

هكذا كان الوضع على المستوى الداخلي، أما خارجيا فلم يكن الوضع أحسن حالا فقد شهد العهد العثماني في هذه المرحلة العديد من المواجهات مع الدول الجوار، وحتى مع الدول الأوروبية، وهنا يمكن القول بأن لهذه الاضطرابات السياسية الداخلية منها والخارجية أثر كبير على الحياة الفكرية والأدبية والثقافية عموما، بل أنها كانت السبب في الكثير من الأحيان في عدم التفات إلى التعريف بالشخصيات العلمية والأدبية، فضاعت مجهوداتهم، وفقد الكثير من أعمالهم وتصنيفاتهم بما في ذلك الكثير من رحلاتهم.

2-2 الواقع الاجتماعي:

الواقع الاجتماعي لم يكن أحسن حالا من الواقع السياسي في هذا العهد، وهذا يعتبر أمرا طبيعيا، فالتداخل بين الواقعيين، الأمر واقع لإخلاف فيه، ذلك أن الحياة السياسية لابد أن تلقي بظلالها عن جميع مظاهر الحياة، فهي عبر التاريخ البشرية كلها محور الذي تدور حوله جميع المظاهر خاصة الحياة الاجتماعية.

«إن التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري في العهد العثماني، كانت متمثلة في تواجد اليهود والمسحيين بين الجزائريين المسلمين، ومثل هذه الظاهرة تعتبر في الحقيقة

ظاهرة طبيعية كانت نتيجة حتمية لمظاهر الكر والفر، وصراع الذي طال مدته بين المسلمين وغير المسلمين».[1]

لقد تعددت الطبقات في المجتمع الجزائري الذي لم يتفق دارسون ومؤرخون على عدد سكانه في هذا العهد لغياب عمليات إحصاء جادة من قبل الحكام العثمانيين، وبالرغم من أن الجزائريين كانوا يمثلون النسبة الأكبر من التمثيل الديمغرافي، وكانوا أصحاب الأرض فقد عانوا الفقر والظلم بعد أن أثقلت الضرائب المفروض من قبل بشوات الأتراك كاهلهم "ولاشك أن هذه الحياة يمكن أن تدفع الكثير إلى الهجرة ولارتحال".[2]

2-3 الواقع الثقافي:

إن هذه الأوضاع وما تميزت به الحياة في هذا العصر من قسوة وفقر في الحياة الاجتماعية ومن انعدام أمن وكثرة الاضطراب في الحياة السياسية، وما عرفت به من بعد مظاهر الحضارة والتمدن وما اتسمت به من طغيان الجهل وحياة الأرياف من ناحية الحضارية الثقافية، ما كانت أبدا لتساعد على ظهور حياة الثقافية وحركة أدبية وفكرية قوية وما كان من المتوقع أن تشهد إبداعا أدبيا قيمة إذ المعروف كما يرى "ابن خلدون" «أن العلوم إنما تكون حيث العمران وتعظم الحضارة، والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قد مناه من جملة الضائع، وفد كنا قدمنا أن الضائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة

[1] حنيفي هايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط 1، 2008، ص 166.

[2] الطاهر حسيني، رحلة الجزائرية في العهد العثماني، مذكرة لنيل درجة الدكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة ورقلة، الجزائر، 2014، ص 67.

عمرانها في الكثرة والقلة، والحضارة والترف: تكون نسبة الضائع في الجودة وكثرة».[1]

لقد ساد الجهل في هذا العهد وانتشرت فيه الأمية، ولم يعد هناك اهتمام كبير بالجانب الثقافي عموما والأدبي على الوجه الخصوص، هذا ما صوره لنا العديد من الرحلة في رحلاتهم وهذه الصورة ينقلها لنا أبو قاسم سعد الله عن مخطوط* كعبة الطائفين التي يقول فيها مؤلفها «فكيف ينبغي لعاقل أن يزهد في مطالعة كتب مشحونة بنقل علوم النافعة، بعد أن أتته عفوا، صفوا، ولم يدرس المسكين ما نال مؤلفيها من تعب في جمع دورها المنثورة من معادنها، واستخراج كنوزها مكنونة في خزائنها، وليتهم مع هذا وجدوا زمنا».[2]

هنيا أو مساعدا مرضيا، أو خلا وفيا، بل لم نجد نحن في هذا الأخير من القرن الحادي عشر، إلا العقارب واللفاع والشقاق والنزاع، وظهور الهمج الرعاع المؤثرين سبل الشر والإبداع.[3]

وعلى العموم فان الاهتمام بالغة العربية وآدابها، لم يكن من اهتمام الحكم الأتراك وربما هذا أمر طبيعي بما أن العثمانيين ليسوا من أهل اللغة، إلا أن الحق يقال لم يكونوا

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة تج علي عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، 1985، د.ط، ج3، ص 990.

* الأصل في هذه المخطوطة قصيدة ملحونة لشيخ "موسى بن علي بن موسى الملاتي" وهي قصيدة في التصوف كما يوحي عنوانها أما شارحها فهو تلميذه "محمد بن سلمان الجزولي" الذي عاش في القرن الحادي عشر للهجرة، وقد قدم من خلال شرحها الكثير من الأخبار عصره السياسية والاجتماعية والثقافية خاصة في الجهة الغربية من الجزائر، للتوسع ينظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 4،2005، ص159 وما بعدها.

[2] مخطوط تحت عنوان "كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة العارفين"، مؤلفها هو: محمد بن سليمان الجزولي.

[3] أبو قاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 4، 2005، ص 164.

ضد هذه اللغة مثلما فعل الأوروبيون، وهذا يعود إلى السبب الذي جعل العثمانيين يدخلون الجزائر وهو نصرة الإسلام كما سلف ذكره.

لقد كانت الحركة العلمية بمفهومها الحديث في العهد متمثلة إتقان فهم آيات الذكر الحكيم، وحفظ الأحاديث الشريفة ومعرفة أصول علم الفقه والعقيدة، وهذا يعني أن العلوم الأكثر انتشارا في عهد، هي تلك العلوم التي نجد لها ظلال في الرحلات العصر، ونعني بها علوم اللغة وعلوم الدين، من نحو وتفسير وقراءت وأحاديث و«لاشك أن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كون أن القرآن والحديث، كان المنبع الذي يستمد من الجزائريون كل ألوان تفكيرهم وأنماط حياتهم»[1] غير أن التعامل مع هذه العلوم ظل بسيط بساطة طبيعية المرحلة التي سيطر عليها النقل وتقلص عندهم دور العقل، أما العلامة الأبرز وبامتياز، فقد كانت الزوايا التي تعددت وانتشرت انتشارا لم تعرف الجزائر له مثيلا من قبل، ما يعني أن هذه الزوايا قد وجدت في هده الفترة الأرضية الخصبة التي ساعدتها على الانتشار الواسع، الاستقطاب الكبير للأهالي بفضل خطابها الديني المؤثر أولا، وتكفلها الاجتماعي بأنصارها ومريديها خاصة الفقراء منهم ثانيا، ذلك ما جعل العهد العثماني فعلا عهد الزوايا والتصوف، فكثير من إنتاج هذا العهد، جاء مصبوغا بصبغة صوفية تتجسد في حب الله تعالى والانخضاع لطاعته والبعد عن الدنيا وملداتها «اعلم أن اسعد الخلق حالا في الآخرة أقواهم حبا لله تعالى، فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم الحب إذا قدم على محبوبه».[2]

إن هذه الصبغة الصوفية كانت موجودة في انتاجات العهد العثماني سواء كان الإنتاج ديني أو أدبي «فنحن نجد كثير من الكتب والرسائل، وتقاليد والمنظمات، تناول

[1] مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية، الجزائر، 1981، ص 110

[2] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، ط 1، بيروت، لبنان، 2005، ص 1694.

التصوف من قريب أو بعيد، كالأذكار والأوراد والمناقب، والمواعظ، وحكم وشروح الخاصة بقصائد الصوفية».[1]

وتعتبر الرحلات في عهد العثماني صورة صادقة لذلك إذ نجد فيها حديثا عن الزوايا ومساجد التي كثيرا ما تكون محطة من محطات الرحالين في كل وجهة يتجهون نحوها وفي منطقة يحولون إليها، سواء عابرين، أو مقيمين قصد الراحة وجمع الأنفاس، وهو ما تتطلبه الرحلة التي عادة ما ينهك أصحابها التعب كما نجد في هذه الرحلات تمجيدا لأهل هذه الزوايا، ومدحا للمتصوفين في رحلاتها بل نبرة الخطاب في الرحلات هذا العهد هي نبرة صوفية، تتجلى واضحة من خلال توظيف الألفاظ الدالة على ذلك، كالغوث والولي وصاحب الأسرار...الخ.

لقد لعبت الزوايا في فترة الحكم العثماني دورا كبيرا، ليس فقط على صعيد الديني بل على صعيد الاجتماعي والثقافي حتى السياسي، غير أن الدارسين لقضايا الزوايا وتاريخها، في العهد، نظروا إليها والى شيوخها ومريدها نظرتين مختلفتين فهناك من رأى أنها لعبت دورا ايجابيا فأشاد بها وعظم شأنها، وهناك من رأى أنها لعبت دورا سلبيا فانتقدها وحط من شأنها، ليس فقط من المحدثين بل حتى من السابقين أمثلة "عبد الكريم الفكون" من ابرز وأكثر علماء انتقادا للزوايا والطرق الصوفية وكان يرى أن بعد إتباع الطرق الصوفية قد أفسدت عقولهم الخرافة وضيعت عقولهم وعقيدتهم الدجالة، فتطلعت عندهم سلطة العقل وسيطر عليهم سلطان القلب، وهناك من نظر إلى الزوايا نظرة

[1] الظاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، ص 128.

موضوعية قوامها الاعتدال فاعتبر أن «لها مزاياها كمالها عيوبا، فلا احد ينكر دور الذي اضطلعت به في حقل التعليم والإرشاد الديني»[1]

إن الوضع الاجتماعي والتفافي إضافة إلى السلطة الروحية التي كانت تتمتع بها الزوايا في العهد ساعدا كثيرا على انتشار التصوف واتساع دائرته، وقد أصبح يمثل ظاهرة بارزة وعلامة مميزة لطبعة الحياة الدينية الأدبية والثقافية في هذا العصر أعنى العصر العثماني.

الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني:

إن من ابرز ما يمكن الحديث عنه من الناحية الأدبية والثقافية إبان التواجد العثماني في الجزائر هو الرحلات التي قام أدباء وعلماء الجزائر، هذه الرحلات التي تعدّدت أسبابها وتنوعت دوافعها فلقد «اسهم الجزائريين مساهمة واضحة في كتاب الرحلات ولاسيما خلال القرن الثامن عشر (18م)، حيث كانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج وبذلك تكون رحلات حجازية، وبعضها نتيجة لطلب العلم وبذلك تكون رحلات علمية».[2]

لقد اهتم الجزائريون الرحالة بعلمية تقييد الرحلات وتدوينها من مشاهدات أو معلومات وأخبار كان قد تلقاها الرحالة أو تعرض لها في رحلته.

3-1 الرحلات الحجازية:

* هو عبد الكريم الفكون محمد بن عبد الكريم بن قاسم بم يحي الفكون، 988هـ/1073م من علماء وصلحاء قسنطينة، ينتمي إلى أسرة عريقة ذات مال وجاه وعلم وهو صاحب "منشور الهداية في كشف حال من إدعى العلم والولاية" كتاب من خلاله أعطى صورة لواقع الحال في عصره كما انتقد بعض المتصوفة المعاصرين له كما يوحي بذلك عنوانه.

[1] العيد مسعود، المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد 10، السنة السادسة، افريل 1998، ص 4.

[2] ينظر أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 381.

عرفت الجزائر في العهد العثماني العديد من الرحلات باتجاه المشرق وكان على رأس الأهداف المرجوة من ذلك أداء فريضة الحج، لكن ذلك لا يخلو من أهداف أخرى مزجت مع الهدف أساسي، مثل طلب العلم والإجازات وغيرها وتنقسم الرحلة الحجازية بدورها إلى حجازية شعرية وحجازية نشرية هذه الأخيرة التي كان القالب الذي يفضل الرحالة الجزائريون الكتابة فيه، إلا هذا لم يمنع البعض من تدوين رحلاتهم شعرا.

أ. رحلة البوني المسماة "الروضة الشهية في الرحلة الحجازية":

تعدّ هذه الرحلة أول رحلة حجازية مذكورة في المصادر مؤلفها هو أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني، عاش في المشرق لاسيما مصر والحرمين كما عاش طويلا بتونس، وقرأ على يد عدد من الأساتذة وأجاز وأجيز.

وقد كان البوني من ابرز علماء عصره من ابرز مرابطي قرن حادي عشر في عنابة، لقد كان مسموع القول عند عامة والخاصة.

لقد كان "احمد البوني" من بين أهم رحالة الجزائريين الذين كانوا شغوفين بالعلم والسعي في طلبه ما جعله دائم الترحال إلى مختلف أقطار العربية كمصر وتونس ومغرب لاستفادة من العلماء الشيوخ الدين تعرض لهم في علم الحديث في الكثير من المناسب، فقد ذكرهم في الرحلة الحجازية "روضة الشهية في الرحلة الحجازية" وعددهم اكتر من عشرين.

وقد نصح احمد الرزوق بقراءة هذه الرحلة وقال فيها «فعليك به أي التأليف فان فيه طرفا وظرفا».[1]

[1] ينظر: أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 390.

ولكن على حسب قول أبو قاسم سعد أن هذه الرحلة ضائعة لهذا لم يستطع الدارسون والباحثون معرفة ما جاء فيها وماذا تحمل بين طيات صفحاتها.

لا يختلف اثنان على أن الرحلة الحجازية تعتبر الأكثر هيمنة على الرحلات الجزائرية خلال العهد العثماني، بل عبر مختلف فترات التاريخ التي تلت الفتح الإسلامي، فالجزائريون على غرار غيرهم كانوا عشاقا لبقاع المقدسة ما جعلهم يشدوا الرحال نحوها كالرحالة الجزائري الشهير "حسين الورتيلاني".

ب. رحلة حسين الورثلاني "نزهة الأنظار في فضل العلم التاريخ والأخبار:

«نزهة الأنظار في فضل العلم التاريخ والأخبار انه العنوان الأصلي لما يعرف عند الدارسين بالرحلة الورتيلانية التي قادت صاحبها لأداء فريضة الحج «ألف الورتيلاني عدة كتب معظمها في الفقه والتصوف والتوحيد».[1]

ولقد تصدّر قائمة كتب قيمة مؤلف "نزهة الأنظار" في فضل علم التاريخ والأخبار الذي أراد من خلاله "الورثيلاني" أن يكتب عملا ضخما يضاهي به أو يوفق عمل علماء عصره، وقد سمى رحلته تسمية تلفت نظرنا ونحن بصدد دراسة التاريخ.[2]

لقد جاءت رحلة الورثيلاني المعرفة ب "نزهة الأنظار" وصفا دقيقا للطريق الذي كان يسلكه الحجاج إلى مكة، ووصف أيضا معالم الحج وتأدية مناسكه، حيث انطلق "الورثيلاني" في رحلته هده من بجاية الواقعة شرق الجزائر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، مرورا بتونس ليبيا، مصر وصولا إلى مكة المكرمة.

* ولد الحسين الوثيلاني بن محمد السعيد في بني وثلان، ومن تمة نسبته الوثيلاني سنة 1125 وتوفي بنفس المكان سنة 1193، واحد من ابرز علماء الجزائر وأدبائها.

[1] ينظر: أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 395.

[2] ينظر: مرجع نفسه، ص396.

لقد كان الرحلة الورثيلاني في رحلته الشهيرة هذه يقدم تقريرا ومعلومات غنية تشمل «ذكر المدن وقرى وبيان أوصافها وذكر الفلوات والصحاري والأنهار والعيون وحسن بناء المدن والأسوار والحوانيت والأسواق والأزقة والمساجد وإتقانها والصوامع وأوصاف ما ذكر وملاقاة الرفاق والرجال من عامة المؤمنين وبيع الحوائج وشرائها».[1]

كما نجد أن هذه الرحلة القيمة لا تكاد تخلو من معالجة القضايا المهمة أو الإشارة إلى قضايا إنسانية هامة كان الرحالة يحاول الحديث عنها ومعالجتها وهذا ما يعكس شخصيته الطيبة الصوفية المسالمة، فنجد الرحالة يدعو في رحلته هذه إلى إصلاح والتسامح بين الناس، والابتعاد عن الفتن وشهادة الزور والظلم وعدم انتهاك حقوق الإنسان، ودعا أيضا إلى التقرب إلى الله تعالى والابتعاد عن المعاصي وكل ما يغضب الله ويخالف سنة رسوله، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تعتبر الرحلة الورثيلاني اليوم من أهم الوثائق التاريخية التي تؤرخ لفترة العهد العثماني، وترسم صورة الحياة في الجزائر وفي الوطن العربي هذا ما يؤكد عليه الورثيلاني من خلال صياغته للعنوان حيث انه «أرادها أن تكون وثيقة إخبارية للخلف عن تجربة موسم الرحلة إلى الحج، بما تحمله من معان إيمانية عظيمة، وتجربة روحية عميقة إضافة إلى ما يتخلل هذه الهجرة الظرفية في سبيل الله من عجائب ومخاطر ذكرها بالتفصيل في نص الرحلة».[2]

والأكيد أن الرحلة الورثيلاني في تعبير من أهم رحلات المغرب العربي نظرا لما تحمله صفحاتها التي ناهزت الثمانمائة صفحة من أخبار متنوعة بين أدبية وتاريخية

[1] سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة، "نزهة النظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، مكتبة الثقافية الدينية، ط1، القاهرة، 2008، ص 179.

[2] عبد الرحمان عزي، التواصل القيمي في الرحلة الورثيلاني، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، د.ط، 2011، ص 10.

ودينية، اجتماعية وحتى سياسية ووصف دقيق للمدن والديار، إضافة إلى تحديد الممالك وتعريف بالمسالك والتعريف بالشخصيات إلى غير ذلك كما يوضح عنوان المؤلف، وقوله في نص رحلته «وبعد فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار والرباع والقفاز والديار، والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان ..... أنشأت رحلة عظيمة يستعضمها البادي ويستحسن الشادي.[1]

وبهذا كانت رحلة الورثيلاني كغيرها من رحلات الجزائريين في العهد العثماني مشبعة بالتزيين لكل ما يتصل بثقافة الذات العربية الإسلامية».[2]

تعتبر هذه الرحلة إحدى الوثائق الهامة التي وثق فيها صاحبها أسماء الشيوخ والعلماء أيضا بالإضافة إلى توثيق علوم الفقه والتاريخ والأدب، وثيقة تحدث ووصف فيها أهم المعالم العمرانية في ذلك العصر، كالمساجد وقصور...الخ

فمثلا قام بوصف "مسجد الزاب ببسكرة" الذي قال عنه «زرنا مسجدا وطلعنا إلى مئذنته وهي في غاية الإتقان والطول والسعة تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها وإدراجها مائة وأربع وعشرون درجة والمسجد في غاية السعة».[3]

كما قام أيضا بوصف "مسجد العشيرة بالمدينة" وقال في صدد هذا الوصف «دخلنا هذا المسجد وقلنا فيه حتى صلينا الظهر والعصر وتوضأنا من هذه العين وعليها نخيل

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق ص 396.

[2] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1978، ص 178.

[3] سيدي الحسين بن محمد الورثيالني، الرحلة الورثيلاني "نزهة النظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، ص 117.

وفيها ينابيع ملتفة ناعمة ووجدنا بها العام يبس ماء العين وانهدم بعض سقف المسجد وذبلت النخل وفي الينابيع مزرارة على تل مرتفع".[1]

لقد جاء وصف "الورثيلاني" دقيقا مفصلا يجعل القارئ لرحلته يتخيل كل مكان قام الرحلة بزيارته، ويعيش دلك العصر الذي عاشه بكل تفاصيله ولم يكتفي "الورثيلاني" بوصف المدن وعمرانها وإنما سجل في هذه الرحلة طبائع الناس وعوائدهم، حيث كان لا يزور مدينة إلا ويصف ما لفت انتباهه من عادات غريبة أو مختلفة عنه، ومن أهم العادات التي قام "الورثيلاني" بالحديث عنها هي عادة زيارة الأولياء الصالحين لطلب الحاجات.

يصف الرحلة الطريقة التي يطلب بها الناس حاجيتهم من الله عن طريق الأولياء الصالحين والأنبياء، حيث يصف ذلك بقول «من أتى زائرا الضريح الولي من أوليائه أو نبي من أنبيائه أو صالحا من صلحائه يقف عند رجليه أو عند وجهه مستقبلا المزور تم يسال الله تعالى بجاهه أن يمن عليه بغية المسؤل ومأمول من خير الدنيا والآخرة».[2] ويقول أدعية كثيرة منها «اللهم بجاه أنبيائك وأصفيائك وصهيب وعمار بن ياسر وأويس القرني وعبد الله بن الحصين وعبد الله بن المبارك وأبي القاسم الجنبيد...، وبجاه صاحب هذا الضريح فلان بن فلان أن تمن علي بكذا وكذا».[3] وتعد هذه العادة من ابرز العادات التي كانت تشد سكان وأهالي المدن الجزائرية خاصة في ذلك العصر. «ولقد كان الورثيلاني عند كلمته ولاسيما بالنسبة لأخبار المتصوف، فقد خصص قسما كبيرا من

[1] سيدي الحسين بن محمد الورثيالني، الرحلة الورثيلاني "نزهة النظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ص 412.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 145

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص 146.

رحلته لأخبارهم في الجزائر وغيرها، وتحدث أيضا عن الخرفات والغيبيات والكرامة المنسوبة إليهم، وتحدث عن كتب الساعة....الخ»[1]

وبهذا فان رحلة الورثيلاني كانت مرآة صادقة عكس الحياة الثقافية والدينية بالجزائر خلال القرن 12هـ/18م كما صورت أفكارهم ومعتقداتهم ومكانة المشايخ والعلماء وحالتهم النفسية اتجاه أداء فريضة الحج.

أ. رحلة احمد المقري (ت1041هـ/1631م):

توجه الجزائريين كالرحالة إلى بلاد الحجاز، كان دافعه ديني يمثل في زيارة بلاد الحرمين، أداء لفريضة الحج، والسلام على الرسول الكريم، ولكن هذا لم يمنع الرحالة الجزائريين من التسجيل مشاهداتهم ومعاينتهم للأقاليم المختلفة التي وطئوها، وحرصوا على تسجيل ذكريات حبيبة على نفوسهم، ومن بين ابرز هؤلاء الرحالة هو "احمد المقري".

«وهو أبو العباس احمد بن محمد بن يحي بن عبد الرحمان بن أبي العيش التلمساني المغربي، الملكي ولد سنة 986هـ/1572م بتلمسان وأما تسميته المقري فترجع إلى أصل أجداده الذين قدموا من مقرة بالقرب من المسيلة إلى تلمسان، وبسبب القرب بين تلمسان والمغرب الأقصى، وحب الاضطلاع عند المقري اتجه إلى فأس سنة 1009 وهي أول رحلاته».[2]

[1] أبو قاسم سعد الله، "تاريخ الجزائر الثقافي"، ص 397.

[2] حوتية عفيفة، الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني، مجلة روافد للبحوث والدراسات، مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة غرداية، العدد 4، 2018، ص 63.

لقد كان المقري كباقي أهل المغرب الإسلامي، يشتاق للحج والى زيارة الحرمين الشريفين ولشدة وحشته أرسل رسالة سنة1021هـ إلى الشيخ أبي بكر المغربي يصف له ذلك، ومما قاله:

إلى الله أشكو بالمدينة الحاجة ..... وبالشام أخرى فكيف تلتقيان.[1]

وبعد هذه الرسالة قرر"المقرى" شد الرحال متوجها إلى المشرق العربي بالضبط إلى زيارة البقاع المقدسة، لقد كانت هذه الرحلة في 1028هـ.

المواقف ل 1618م وبقي فيها بعد العمرة ينتظر موسم الحج وقال «أكملت العمرة ودعوت الله أن أكون ممن عمر بطاعة ربه عمره، وأقمت هناك منتظر الحج الشريف»[2]

وقد انطلقت رحلته هذه من الفأس مرا بتونس ومنها إلى الإسكندرية عن طريق البحر وصولا إلى مكة المكرمة، وحب المقري إلى الأرض الذي وطأتها أقدام الرسول محمد صل اله عليه وسلم جعله يتردد على زيارتها عدة مرات «فقد ظل ينتقل بين مصر والحجاز، ثم أضاف ذلك بيت المقدس ودمشق، فحج حوالي خمس مرات وسافر إلى القدس عدة مرات وذهب إلى الشام على الأقل مرتين»[3].

إن هذا التنقل بين أقطار العربية يجعلنا ندرك أن المقري كان دائم الترحال وان أسباب رحلاته كانت متنوعة فرحلاته لم تقتصر على السبب الديني الذي كان يقوده إلى بلاد الحجاز وفقط وإنما كان حاله حال العلماء الجزائريين خلال فترة العثمانية محبين للعلم والمعرفة والتطلع والاكتشاف الذي يسعون في سبله إلى الترحال خارج وطنهم الأم.

[1] نقلا عن نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب.

[2] شيماء محمود طه، "المقري سيرته وحياته العلمية"، مجلة الدراسات الملوية، جامعة سمراء، العدد9، 2017، ص 119

[3] أبو قاسم يعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 217.

رحلة أبي راس الناصري (1239هـ/1823م):

لقد شاهد مطلع القرن الثالث عشر الهجري المواقف لقرن التاسع عشر ميلادي بروز حركة أدبية مميزة في حواضر الغرب الجزائري، فما يخص أدب الرحلة الحجازية ومن بين أهم هذه الرحلات الرحلة "أبو راس الناصري".

«اسمه الكامل هو محمد ابن احمد بن عبد القادر بن محمد بن احمد بن ناصر الجليلي، وبعض المؤلفين يقول "الناصري" بالنسبة ولد أبو راس سنة 1165 وتوفي سنة 1238 ومعنى ذلك انه عاصر أحداثا هامة في حياة بلاده وفي حياة العالم الإسلامي قاطبة».[1]

لقد كتب اسم "أبو راس الناصري" بأحرف ذهب فيما يعرف بأدب الرحلات حيث كان دائم الترحال إما قاصدا لبيت الله الحرام لتوق وشوق للبقاع المقدسة أو حتى بغية زيادة وتيرة العلم والمعرفة عنده لينفع وينتفع «لقد كانت ثقافة أبو راس الناصري ثقافة عامة غير مركزة وثقافة محلية وكانت تقوم على المجهود الشخصي الأكثر من أي وسيلة أخرى، يعززها ذكاء حاد وذاكرة قوية وطموح بعيدا المدى».[2]

هذا ما جعله ربما يتميز عن العديد من معاصريه سواء كانوا علماء أو أدباء أو غير ذلك ممن عرفتهم الساحة الأدبية الجزائرية وحفلت بأسمائهم.

وبسبب نبوغه وقوة ذاكرته، كان يدرس وهو صغير السن وعرف "أبو راس الناصري" سفره الدائم سواء داخل الجزائر أو خارجها "حيث زار العديد من المدن في الجزائر مثل: الجزائر وقسنطينة وخارج الجزائر متل تونس ومصر والحجاز وغيرها وقد بدا اسفار الى

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع سابق، ص 377.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 379.

المشرق الاسلامي سنة 1204هـ ولعله داع صيته واشتهر حتى عرف في مصر بشيخ الإسلامي»[1]

وبهذا يكون "أبو راس الناصري" كغيره من علما عصره الذين ساهموا في كتابة الرحلات التي كانت عبارة عن وثائق هامة يستفيد منها الدارسون والباحثون، أن مصنفات ومؤلفات "الناصري" لا تعد ولا تحصى منها حفظ في المكتبات والخزانات ومنها ما ضاع ولعل ابرز وأعظم رحلة قام الرحالة بكتابتها هي الرحلة المسماة "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" «لما عاد أبو راس الناصري إلى وطنه، أين شغل ما يحصل عليه أهل العلم والصلاح القضاء والإفتاء وخطبة الجمعة في "أم معسكر" لكنه عزل منها سنة1211هـ فاتجه إلى المغرب الأقصى، وبعد مدة قضاها في المغرب عاود الرحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج سنة 1226هـ/1813م فحج وعاد إلى الجزائريين استقر وألف رحلته الموسومة "فتح الإله ومنته.."[2] رحلة نقل لنا من خلالها الرحالة صورا حية وصادقة عن المدن والمجتمعات وعن عادات السكان وتقاليدهم ونظمهم الاجتماعية وأحوالهم النفسية، رحلة تحدث من خلالها الرحالة عن علمائه ومشايخه الذي يفتخر بهم.

"إن الرحلة أبو راس الناصري المسماة "فتح الإله" ثم طبعها بعد تحقيقها من قبل المؤرخ محمد بن عبد الكريم الجزائري، وهي مقسمة إلى خمسة أبواب أولها كان عنوانه" ابتداء أمري" وفيه ذكر سيرته الذاتية وأما الباب الثاني فسماه" في ذكر شياخي الناقضين عنى قشب أو ساخي شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة" عنوان يدل على محتواه من ترجمة شيوخه».[3]

[1] حوتية عفيفة، الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني، ص 65.

[3] ينظر: حوتية عفيفة، الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني، ص 66

إن عناوين الأبواب الأولى من الرحلة يجعل القارئ يذهب للقول بأن الرحلة احتوت على ما هو أدبي وفقط وان سبب الرحلة كان سبا دينيا وفقط إلا متابعة قراة باقي العناوين يجعلك تدرك أن الرحلة قد جمعت بين ما هو أدبي حيث أن الرحلة "الناصري" «الباب الثالث خصه لذكر رحلته فسماه" في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرها ولقاء العلماء والأعلام وما جرى لي معهم المراجعة والكلام" وكان الباب الرابع في الأسئلة وما يتعلق بها" والباب الخامس والذي ختم به المؤلف هو "المسجد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز "وفيه ذكر المؤلفات أبو راس الناصري".[1]

وبهذا يتضح لنا أن الرحلة الناصري عمل مقدس، سواء كانت رحلة لنيل اعزما يطلب وهو العلم، أو رحلة أداء فريضة الحج وفي كلا الحالتين يكون تحقيق الأمن الروحي هدفا مضمرا في كل رحلة يقوم بها الرحالة، ولقد تميزت رحلة أبو راس الناصري بمنهج دقيق وهو يختلف كثيرا عن الرحلات المذكورة رغم كونها تتناول موضوع الرحلة إلى الحجاز، لغرض أداء فريضة الحج فهي تظهر عملية أكثر منها دينية فكان المؤلف يهتم بالعلم والعلماء وطلب العلم وملاقاة الشيوخ حيث أول ما يدخل إلى المدينة فيسهب في ذكر علمائها ووصف العلوم والمسائل التي سمعها منهم «وهكذا يتضح أن مساهمة أبو راس في تاريخ الجزائر والتاريخ العام مساهمة عظيمة وان أثاره جديرة بالدرس والنشر وان شخصيته تحتاج إلى إظهار واعتبار يليقان به»[2]

إن الدارس لرحلات الرحلة الجزائريين خلال الفترة العثمانية بصفة خاصة يدرك أنها لم تكن رحلات للنشرة والفرجة، وإنما كانت لإحداث التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب العربي، رحلات تعددت أنواعها وتنوعت أسبابها رحلات غدت في اكتشاف المجهول من

[1] ينظر: حوتية عفيفة، الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 66

[2] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 381.

جهة زيارة البقاع المقدسة من الجهة أخرى بالإضافة إلى زيادة العلم والمعرفة، ذكر أخبار الأمم والأقوام إلى ما غير ذلك.

3-2 الرحلات العلمية:

يقصد بالرحلات العلمية، هي تلك الرحلات التي قام بها أصحابها بغرض طلب العلم والأخذ عن العلماء، ووصف البلدان والمجتمع عموما، والحديث عن الحياة الفكرية والنشاط الثقافي وفي هذا الصدد أكد "ابن خلدون" على ضرورة الرحلة فقال: «والرحلة لابد منها في طلب العلم، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ»،[1] وقد تجاوزت أهمية الرحلة العلمية قضية التعلم والاكتساب إلى النظر إليها باعتبارها معيار للحكم على مستوى العلماء والفقهاء فهي «تعادل اكبر الإجازات والشهادات التي يحصل عليها العالم أو طال العلم »[2] ولقد عرفت الجزائر خلال الفترة العثمانية العديد من تأليف في مجال الأدب الرحلات، مصنفات كانت لها أهمية كبيرة في مجال العلم والمعرفة كانت نتيجة «قوة الاحتكاك بين رجال العلم فقد احتكاك بين الرجال العلم المسلمين في هذا القرن.. العلماء المغاربة الدين رحلوا إلى المشرق حيث عرفوا أهله بأحوال المغرب يجوبون الأقطار معرفين الناس ببلدان العالم» ومن بين أهم الرحلات الجزائرية العلمية خلال الفترة العثمانية رحلة "عبد الرزاق ابن حمدوش" المعنونة بلسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال من تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور "أبو القاسم سعد الله" وهي تمثل الجزء الثاني من الرحلة والتي احتوت على رحلته إلى المغرب الأقصى بهدف الحصول على إجازة والاستفادة في العديد من الأمور خاصة في مجال الثقافي والاقتصادي والاجتماعي وكل ما هو علمي وهذا راجع لكون أن الرحلة "ابن حمدوش" هو طبيب ورحالة وصيدلاني

[1] خالد التوزاني، الأمن الروحي في الرحلات الصوفية المغربية، ص 20.

[2] محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992، بيروت-لبنان، ص 30.

وقد أشار أبو قاسم سعد الله إلى ذلك في كتابة "تاريخ الجزائر الثقافي" رغم أن ابن حمدوش قد تثقف ثقافة معاصرة من لغة وفقه وأدب وتصوف وتوحيد، فان كان بطبعه ميالا إلى كتب العلمية، وقد روى انه درس تأليف القلصادي في حساب وشرح محمد السنوسي على الحباك في الأسطر لاب، والقانون والنجاح والطلاسم، لابن سينا ومقالات إقليدس"[1].

إن هذا كله يعكس ثقافة هدا الرحالة الواسعة والمتنوعة فقد كان متشعا علميا وأدبيا ما جعل رحلته تجمع بين الأدبي والجانب العلمي المهم للبشرية وهدا يظهر جليا لرحلته «خاصة لما قدم من وصف لطريقة التدريس ونوعية الدروس والكتب التي تدرس أوقات الدروس وطريقة أخذ الإجازات كما ترجم شيوخه وذكر شيوخ شيوخه الذين أجازوه»[2] لذا يمكن القول بأن هذه الرحلة كان غرضها اكتساب المعرفة وتحقيق المأمول والسعي إلى مشاركة غيره من أهل وطنه فيما سرح في ذاكرته من أخبار البلدان وشعوبها.

تعتبر رحلة ابن حمدوش الموسومة "لسان المقال" جزء هام من تراث الجزائر والمغرب لأنها كتبت في العهد العثماني وهي تزخر بمعلومات كثيرة سياسيا وفكريا واجتماعيا واقتصاديا، كما أنها تعد مصدرا هاما عن حياة المؤلف نفسه لقد استطاع ابن حمدوش من خلال الرحلة أن يبرز قدرته على الكتابة وتفوقه في العديد من المسائل العلمية، أما عن العادات وتقاليد الاجتماعية والدينية في الغرب فقد ذكر منها طريقة فرض المكوس في ميناء تطوان التي اعتبرها عادة قبيحة".[3]

[1] ينظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 426.

[2] ينظر: حوتية عفيفة، الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني، ص 73

[3] أبو قاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، عالم المعرفة، الجزائر ط 1، 2011، ص 31.

والمقصود بهذه العادة هو أكل مال الناس بالباطل، لهدا استقبحها ابن حمادوش وأعابها على أهل المغرب واعتبرها تخدم القوي وتظلم الضعيف وهدا فيه نوع من الفساد الأخلاقي، كما تطرق ابن حمادوش إلى العادات الجزائرية وعادت ما كان يقارن بينها وبين عادات وتقاليد أهل المغرب.

أما عن أخبار العلماء والشيوخ فقد تحدت عن علماء المغاربة الشيخ"عبد السلام القباب" مؤقت جامع النجارين والشيخ "عبد القادر الفاسي" مؤقت الجامع الكبير وذكر كذلك في رحلته "فدخلت مساكنه عند زوال من يوم الاحد سادس والعشرين من صفر 1156 الموافق للعاشر ابريل سنة 1743 مسيحية وفي يوم الاتنين التقيت ب سيدي عبد السلام القباب بلغني انه من خيارهم".[1]

كما تحدث أيضا عن علماء الجزائريين مثل "محمد بن ميمون" وابن حمادوش عمل في هذه الرحلة على إبراز القيمة العلمية لها من خلال إيراد كيفية التبادل العلمي بين العلماء المغاربة ما يدل أن العلوم كانت متشبعة في عهد العثماني ويمكن تقسيم ما كتبه الرحالة عن المغرب إلى ثلاث وحدات: الحوادث والعادات والعلماء وفي نظر الدكتور أبو قاسم سعد الله تكمن قيمة هده الرحلة في أنها "قيمة عظمى لذلك أقدم على تحقيقها وهي تكمن في كونها جزء من ترات الجزائر العربي الاسلامي كتب في عهد العثماني".[2]

كما تحفل هذه الرحلة بالمعلومات عن عصر الرحالة سياسيا واجتماعيا وحتى ثقافيا وذلك من خلال الحديث عن معاصرية وأفكارهم وأخلاقهم ويظهر ذلك جليّا في طيات صفحات رحلته العظيمة التي تمايز بروحها العلمية فابن حمادوش كان كثير الاهتمام بالمسائل العلمية كالطب والفلك والصيدلة وعلم الأعشاب إلى غير ذلك ما جعلها تكون

[1] أبو قاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، عالم المعرفة، المصدر سابق، ص77.

[2] ينظر: مصدر نفسه، ص 23.

مصدرا هاما للباحث والمؤرخين ونظر لأهمية هده الرحلة وقع اختيارنا عليها لتكون موضوع دراستنا وبحثنا والوقوف على أهم ما جاء فيها وإبراز قيمتها الأدبية والعلمية.

الفصل الثاني

مضامين الرحلة في لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال

تمهيد:

تميز الرحالة الجزائريون بميزات خاصة في تدوين رحلاتهم فكل رحالة يكمل ما نقص من سلفه ويضيف للفن الرحلة لبنات جديدة أعطته صفته وميزته عن باقي الرحالة.

فمنهم من تأرجحت رحلته بين الرحلة والوصفية والعلمية فجاءت تشتمل على قسط وافر من الوصف سواء للراحل أو المدن أو الآثار بالإضافة إلى عناية الفائقة بشرح النواحي السياسية والحضارية والحرص على الاهتمام بالجانب العلمي من تراجم العلماء والشيوخ والبحث في مختلف العلوم التي كانت متشبعة في الفترة العثمانية.

إن كتابته هذه الرحلات فن قائم بذاته زاخر بالكثير من المعلومات التي تهم المؤرخ والجغرافي وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع فأهميتها تتجلى بما تحويه من مادة علمية عن تلك النواحي المكتوبة بأسلوب أدبي منسق خال من الأساطير إلا ما ندر والمعتمد على المشاهدة والسماع في ملاحظة مختلف المظاهر ومن ثم تدوينها.

ومن هنا يمكن القول أن المتمعن في كتب هؤلاء الرحالة يجدهم يتفاوتون في درجة ملاحظاتهم واهتمامهم ببعض النواحي دون الأخرى، فمنهم من تعد مؤلفاته من أهم الكتب التي تشير بوضوح للجانب الثقافي والعلمي مع الكشف عن الأصول والمنابع التي استقى الرحالة علومه منها وعلى ضوء ذلك تعد من أهم المصادر عن الحركة العلمية في الفترة العثمانية ومن بين هؤلاء الرحالة الذين ارتبطت رحلاتهم بالجانب العلمي نجد "ابن حمادوش" الذي دفعه شغفه للعلم وحب المعرفة والغوص في بحر العلوم المختلفة للقيام بالعديد من الرحلات قصد إشباع هذه الرغبة بالإضافة إلى كنونه طيبا وصيدلانيا فهذا يعد أمرا طبيعيا، فجاءت مؤلفاته تحمل بين طياتها العديد من الأمور، لم يغفل فيها عن دراسة أحوال المجتمعات وعاداتهم وتقاليدهم إلى ما غير ذلك إلا أن هذه المؤلفات كلها

يجمعها قاسم مشترك وهو الجانب العلمي الذي كان يحضر بقوة في كل رحلاته وللتعرف على ذلك أكثر ارتأينا الوقوف على دراسة مواضيع الرحلة عند "ابن حمادوش الجزائري".

1. موضوعات الرحلة عند ابن حمادوش الجزائري:

لقد أسهم الرحالة ابن حمادوش الجزائري في التعريف بنمط الحياة الجزائرية والمغاربية خلال العهد العثماني، فقد جاءت مؤلفاته كوثيقة تمثل الهوية الجزائرية بصفة خاصة وصورة تعكس واقع الحياة المغاربية بصفة عامة، وهذا نظرا للأهمية التي اكتستها هذه المؤلفات سواء من الناحية الاجتماعية، الثقافية، الأدبية، وحتى العلمية وهذا التنوع في مواضيع مؤلفاته ورحلاته ناتج عن دوافع الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، فالدافع هو الذي يجعل الرحالة لا يحصر رحلته في موضوع واحد وإنما يجعل منها مصدرا هاما للباحثين والدارسين تمدهم بما يفيدهم في مختلف المجالات الجغرافية الاجتماعية....الخ

إن هذا الفضول في معرفة دوافع الرحلة الجزائرية في العهد العثماني جعلنا نتطرق إليها في هذا الفصل قبل الخوض في الحديث عن أهم رحالة عرفته الجزائر خلال الفترة العثمانية وهو" ابن حمادوش".

1.1 دوافع الرحلة الجزائرية في العهد العثماني:

الحديث عن الرحلة الجزائرية خلال الفترة العثمانية يجعلنا نقف وقفة نبحث من خلالها عن الدوافع التي دفعت الجزائريين خلال هذا العهد للقيام برحلات، وهي رحلات عديدة بوأتهم مكانة رفيعة في هذا الفن مكانة اعترف لهم بها المؤرخون، وتلك حقيقة لا ينكرها أحد "فقد أسهم الجزائريون مساهمة واضحة في كتابة الرحلات ولا سيما خلال

القرن الثاني عشر، الثامن عشر ميلادي"[1] رغم أن كثيرا من رحلاتهم ضاعت وأخرى لم تصلها أيادي الدارسين والمؤرخين بعد.

أ. الدافع الديني:

لم يتخلل الرحالين الجزائريين الضعف طيلة مكتهم تحت لواء الإسلام إلى يومنا هذا، فيما يتعلق بالسفر لأداء فريضة الحج والشوق للقاء الرسول[2]، ولذلك فقد كانوا يسجلون عواطفهم المتأججة لرؤية أرض الحجاز والترك بترابها وهوائها فمنهم من نظم فيها شعرا ومنهم من أسعفه عنها نثرا،[3] فأدرجت رحلاتهم تحت ظل ما يسمى بالرحلة الحجازية "لقد كان الرحالة الجزائري في هذه الفترة يرتحل إلى الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمن وتوبة، وتطهيرا للنفس من دنس الذنوب وعهدا للسير على الصراط المستقيم وأملا في المغفرة".[4]

ولما كانت الحياة الروحية الممثلة في الصوفية سيطرت على الحياة في العهد العثماني واعتقد بها الناس جميعا فإن التصوف كان في كثير من الأحيان من الدوافع الدينية التي دفعت بعض الرحالين الجزائريين للارتحال بنية البحث عن الشيخ يتركون به، يجالسونه وينتفعون به وبدعواته فيمكنهم من التصوف ويتعلمون أصوله يعرفهم الحقيقة، كل هذا اعتقاد منهم أن من يريد التصوف وتطهير النفس من الضنك والغم والجلوس مع الله دونه

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع سابق، ص 395

[2] عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث، سياق النص وخطاب الأنساق، أطروحة الدكتورة، علوم في الأدب الجزائري الحديث، تلمسان، الجزائر، 2016، ص 31

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص 32

[4] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط 2، 2002، ص 19

هم فما عليه إلا أن يبحث عن شيخ يأخذ عنه أو زاهد يتقرب منه يعينه على بلوغ مراده "التصوف".[1]

ومن هنا كانت هذه الرحلات بمثابة بابا لإعادة التوازن بإحياء الأمن الروحي وحمايته سواء في زمن الرحلة أو حتى في زمن تدوينها.

ب. الدافع الجهادي السياسي:

إن الحديث عن الدافع لا يجب أن يحجب أعينا عن العامل السياسي الذي فرضته طبيعة الحياة السياسية المضطربة داخليا والمتدهورة خارجيا مع بعض الدول الغربية خاصة اسبانيا التي كانت أكبر متربصين بالجهة الغربية للوطن ووهران على وجه الخصوص، لقد كانت هذه الأوضاع من العوامل التي حتمت على بعض القيام برحلات من نوع خاص،[2] نعنى بها تلك الرحلات الرسمية التي قام بها بعض الحكام بدوافع مختلفة تأديبية تارة وجهادية تارة أخرى. وقد كان يحرص هؤلاء على تسجيل أحداث الرحلة تحت إشراف الحاكم المرتحل ويعتبر محمد الكبير باي الغرب الجزائري من أشهر الشخصيات التي اهتم بها الجزائريون وكتبوا عنها وتتبعوا حركاتها وتنقلاتها ودونوا سيرتها إعجابا بها وتقديرا لعملها، فالمؤلفات إذن كانت تاريخا للحادث الكبير ولكنها أيضا كانت تاريخا لسيرة الباي وأعماله ومكانته بين الناس،[3] هذا الباي الذي عمل كل ما بوسعه على إصلاح شؤون البلاد المتدهورة وإخضاع المتمردين للحكم التركي.

ومن هنا يمكن الإشارة إلى رحلته الموسومة برحله محمد بن الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، "هذه الرحلة قام بها الباي ودون أحداثها ابن

[1] ينظر: طاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 80

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 90

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 406

هطال التلمساني أما الدافع إليها فكان تأديب القبائل المارقة التي لم تخضع للسلطة العثمانية أو تمردت عليها ولا شك أن رحلة رسمية كهذه لابد أن تكون قائمة على دراسة دقيقة".[1]

تؤكد لنا هذه الرحلة بأن الرحلات الجزائرية خلال العهد العثماني لم تكن رحلات خارجية نحو الأقطار العربية المشرقة أو الغربية وفقط وإنما أيضا كانت هناك رحلات جزائرية داخلية يجوب بها الرحالة مختلف المدن الجزائرية رحلات كانت دوافع مختلفة تختلف من رحالة إلى آخر.

ت. الدافع العلمي:

يولد الإنسان، ينمو ويكبر فيجد نفسه أمام طريقين طريق العلم وطريق الجهل والسوي من البشر هو ذلك الذي يختار طريق العلم الذي يخرجه من نفق الظلمات وينور بصيرته ويحقق هدفه من الحياة على وجه الأرض وبما أن الرحالة هو إنسان بطبعه كانت له غريزة التعلم واكتشاف المجهول وإزال الغموض حول كل ما يدور ويجول بخاطره، "بغرض الاستزادة من العلم في منطقة أخرى من العالم.... للبحث في مختلف مجالات العلوم كالفقه والطب والهندسة والعمارة وغيرها"،[2] ولما كان الرحالة الجزائري محبا للعلم شغوفا في طلبه كانت رحلاته العلمية تخوض الحديث في مواضيع العلمية الهامة.

وفي هذا الصدد يقول محمد عمارة إن تلاقي الحضارات وهو معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية وتفاعلها عندما تتلاقى قدر لا سبيل مغالبته أو تجيبه لكنه يتم دائما وأبدا وفق هذا القانون الحاكم التميز بين ما هو مشرك إنساني عالم تفتح له الأبواب

[1] ينظر: طاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، ص 85

[2] ينظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص 19

والنوافذ بل يطلبه العقلاء ويجدون فيه السعي لتحصيله وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون بحذر قبل استلهامه.[1]

الدافع العلمي جعل الرحالة الجزائري ينوع في رحلته بين القطر المشرقي والقطر المغربي، وهكذا أصبح هدف النشاط العقلي فهم التراث والتلاؤم معه وتسهيل الطريق للعقل... للخوض في مختلف المسائل العلمية، ذلك العقل الذي كان همه الأكبر طلب القاعدة والقانون.[2]

والمعلوم أن العلوم التي سيطرت على الرحلات الجزائرية في العهد العثماني هي العلوم الدينية واللغوية بالدرجة الأولى إلا أن هذا لا يحجب النظر عن ما قام به العديد من الرحالة في البحث في علوم الفلك والرياضيات والطب وغيرها وهذا كله كان ينطوي تحت ظل ما يعرف بالرحلات العلمية.

والحديث عن الرحلات يقودنا لمحاولة معرفة مواضيعها ولتحقيق ارتأينا أن نقف عند أهم رحالة ارتبط اسمه بالرحالة العلمية وجاءت مؤلفاته ذا منحى علمي بامتياز.

وهو ابن حمادوش الجزائري الذي كانت رحلاته استثنائية في تاريخ الرحلة المغاربية هذا الاستثناء جعلنا نحاول التعرف على مواضيع رحلاته المختلفة وإن كان أكثرها مفقودا.

2.1 موضوعات رحله الرسالة في الكرة الفلكية المنسوبة لابن حمادوش:

من بين أهم المواضيع الذي وردت في هذه الرحلة الموسومة برسالة في الكرة الفلكية هو مواضيع العلمية وهذا ما أشار إليه أبو قاسم سعد الله عندما قال: عندما قرأنا في فهارس المخطوطات أن لابن حمدوش رسالة في الكرة الفلكية وأن نسخة منها توجد في المكتبة

[1] حسين محمد فهيم، أدب الرحلات سلسلة كتب ثقافية شهرية، عالم المعرفة، الكويت، د.ط، 1990، ص 189

[2] ينظر: محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق، ص 29

الملكية بالمغرب الأقصى، حرصنا كل الحرص على الحصول على نسخة منها لنضيفها إلى رصيدنا،[1] ويضيف أبو القاسم سعد الله قائلا: وما زاد من حرصنا على امتلاك نسخة منها أو الاطلاع عليها أنه هو نفسه كرر في رحلته الحديث عن اهتمامه بعلم الفلك وصورة الأرض والأرباع وغير ذلك،[2] إن هذا الكلام يؤكد على أن هذه الرحلة هي الرحلة علمية بامتياز كانت وجهتها المغرب الأقصى، لكن هذه الرحلة العظيمة ظلت محطة شك فيما إذا كانت لابن حمادوش أم أنها تنسب إليه وفقط وهذا يظهر لنا جليا من خلال قول أبو القاسم سعد في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر "فلما أخذنا في قراءتها اعتقدنا لأول وهلة أنها من صنع ابن حمادوش نفسه وأننا أمام عمل جديد بالنسبة لعصره وأن له هو الفضل الأول في الرجوع إلى كتب الأقدمين وتبويب الرسالة إلى فصول بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة.[3]

من خلال هذا القول يتضح لنا أن أبو القاسم سعد الله كان لا يزال لم يصل إلى اليقين الذي يقطع به الشك فيما كان ابن حمادوش هو الذي ألف هذه الرسالة أم أنه نقلها ونقله كان بمثابة التقليد الذي لا ينقص ولا يزيد على النسخة الأصلية، وفي هذا السياق يضيف" سعد الله" قائلا: ولكن زميلنا الأستاذ أحمد جبار شك بعد اطلاعه على الملخص الذي قدمناه للمشرفين على الملتقى.... وشكه هذا جعلنا أيضا نتوقف عن نسبة الرسالة لابن حمادوش في انتظار الاطلاع على مصادر جديدة وقراءة جديدة للرسالة نفسها،[4] ربما يكون ابن حمادوش قد نقل الرسالة من غيره أو أن هذه الرسالة هي لابن حمادوش ولكنها تشبه إلى حد ما مؤلف آخر جعلها تكون محطة شك فيما إذا كانت من تأليفه أم

[1] عيسى بختي، أدب الرحلة الجزائري الحديث سياق النص وخط بالانساق، ص 38

[2] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص 170

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص 170

[4] ينظر: المرجع نفسه، ص 171

أنها تشبه له وفقط ما هذا ما توصل إليه أبو القاسم سعد للإجابة عنه في مؤلفه المذكور سابقا بقوله: "وها نحن نسرع إلى القول بأن النسخة التي بين أيدينا من الرسالة تكاد تكون منسوخة طبق الأصل من الباب السابع في كتاب الحسن المراكشي ونحن نقول طبق الأصل لأن التقليد في النقل لم يشمل الألفاظ والعبارات فقط ولكن شمل أيضا التبويب فصول ابن حماد حمادوش التسعون هي فصول المراكشي التسعون".[1]

إن هذا القول يخلق في أذهاننا الفضول في معرفة ما إذا كان هناك فرق بين رسالة الكرة الفلكية لابن حمادوش ومؤلف "جاميع المبادئ والغايات في علم الميقات" لحسن المراكشي، وفي هذا السياق يورد سعد الله في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر نصا من مقدمة الرسالة على لسان ابن حمادوش "وبعد فلما ملكت الكرة اشتقت إلى تأليف في العمل بها فلم أجد في هذه الساعة تأليفا مستقلا فيها إما أدرجه المراكشي في كتابه حيث عقد لها الباب السابع، فأردت أن أفرده بتأليف لا أزيد عليه ما أحصل من غيره"،[2] وهنا يتضح لنا أنه ليس هناك فرق بين النسخة الأصلية للمراكشي وبين ما نقله ابن حمادوش وهذا أمر طبيعي فكلاهما كان محبا لعلوم الفلك والرياضيات وما يتصل بهما محبان للترحال وما فيه من الفضول العلمي والاطلاع على المجهول والوصول إلى إدراك الحقائق العلمية.

2.2 كشف الرموز:

إذا كان علماء المسلمين قد اهتموا برحلات ابن حمادوش لما فيها من أخبار سياسية أو دينية أو اجتماعية فإن العلماء الأوروبيين قد اهتموا بآثاره العلمية على الخصوص.

[1] أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص 173

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 176

فالسيد لوسيان لكريك L.Lecler والسيد غابريار كولان G.colin اهتما به لأنه ألف عن الطب الشعبي فترجم له الأول الجزء الخاص بالأعشاب المعروف بكشف الرموز ونشره بالفرنسية ودرس حياة ابن حمادوش وعرض أفكاره وملاحظاته وعلق عليها ولا سيما ما جاء في عمله المذكور وهو "كشف الرموز" وكلاهما نوه به.[1]

إن هذا المؤلف هو عبارة عن موسوعة عملية في علم الأعشاب والعقاقير والأدوية بصفة عامة حيث يقول مؤلفه "عبد الرزاق بن حمدوش"إن فتح الله عليك بمعرفة الأدوية إما بوقوف عليها أو بكتاب فتح الله عليك وحققتها فإذا كانت في الأماكن المعتدلة فيكون أخذها وسط الربيع ولا تجمعها إلا بعد استحكام نضجها في مكانها وكمال إدراكها"[2]

في هذا المؤلف لم يكتفي ابن حمدوش بالحديث عن الدواء فقط وإنما أيضا يورد طريقة أخذه وكيفية الاستفادة منه والمعالجة به وهو مؤلف يستفيد منه الطبيب والمريض على حد سواء.

ويعد هذا المؤلف جزء من أعظم كتاب ألفه ابن حمادوش في الطب الموسوم ب"الجوهر المكنون من بحر القانون" يقول أبو القاسم سعد الله "كشف الرموز لابن حمادوش هو في الواقع كتاب الرابع من مؤلفه الكبير في الطب الذي سماه الجوهر المكنون من البحر القانون".[3]

هذا المؤلف كان محل دراسة من قبل الكثير من الدارسين والباحثين وهذا نظرا لأهميته العلمية حيث جاء هذا الكتاب بمثابة قاموس طبي رتبة ابن حمدوش على طريقة المعاجم

[1] www.aqlamhind.com

[2] عبد الرزاق محمد ابن حمادوش، كشف الرموز في الشرح العقاقير والأعشاب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996، ص 9

[3] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 431

الأبجدية إلا أن المؤلف لم يذكر حرف الغين والضاد في معجمه ربما لعدم توفر أسماء الأدوية وما نحوها في هذين الحرفين.[1]

لقد اعتمد ابن حمادوش في تأليفه هذا الكتاب على العديد من المؤلفات الطبية حيث يقول أبو القاسم سعد الله في هذا الشأن" ينقل عن ابن سينا عدة صفحات..... وقد رجع ابن حمدوش إلى مؤلفين مسلمين ويونان لتذكر من هؤلاء داود الأنطاكي صاحب التذكرة....."[2]

ربما هذا الرجوع إلى مصادر مختلفة والمتنوعة هو الذي جعل من هذا الكتاب موسوعة علمية بامتياز.

لقد قسم ابن حمدوش حديثه عن الأعشاب والعقاقير على حسب الحروف حيث يسهل ربما على الباحث أن يحصل على المعلومات التي تخص العشب أو الدواء الذي يبحث عنه دون عناء فمثلا في باب حرف الألف ضم الحديث عن عدة أعشاب طبيعية طبية منها "إكليل الجبل" الذي قدم له تعريفا "هو المعروف عندنا بإكليل وهو محل مفتح حريق ينفع الخفقان والسعال والاستقاء محلل الأورام الحارة لأنه حار يابس في الأول وقيل في الثانية"[3]

في قسم الأعشاب التي يبدأ اسمها بحرف الألف نجد أيضا حديثه عن العشبة "أستبون" حيث يورد عنها قائلا "كما في تذكره الأنطاكي وفي النسخ استيوب وهو تصحيف وهو الزنبوع بارد يابس في الثالثة وقشره حار يابس في الثانية أضعف فعلا من

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 432

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 433

[3] عبد الرزاق محمد بن حمادوش، كشف الرموز في الشرح العقاقير والأعشاب، ص 11

الأترج وأقوى من الليمون،[1] وعقبت التعريف بالدواء يقوم ابن حمادوش بإعطاء فائدته فمثلا هنا يريد فائدة عشبة "استيبون" فيقول يسكن اللهيب والعطش والصفراء ويفتح الشهية وهو فارسي"،[2] لقد تفنن ابن حمادوش في تأليفه لهذا الكتاب العلمي فهو لم يقتصر في تأليفه على إدراج أسماء الأدوية وفقط وإنما أيضا تحدث عن فائدتها وكيفية استعمالها والأمراض التي تعالجها فجاء مؤلفه عبارة عن معجم علمي في الأعشاب والأدوية والعقاقير والنباتات.

فمثلا في حديثه عن نبته "خلنج" يقول "شجر ورقه يقرب من الطرف قيل أن منه يصنع الفحم الحدادين في بلادنا وزهره أحمر وأبيض وأصفر، وحبه كالخردل وهو حار يابس في الثانية"،[3] ويورد فوائد هذه النبتة فيقول أنها" وقد جرب دهنه لإزالة الإعياء وضربان والنقوس عن برد ونشارته إذا غسل بها البدن.... يحفظ القلب من السم والأكل في أوانه يدفع الخفقان"،[4] إن ثقافة ابن حمادوش الواسعة وتفوقه العلمي جعله يفكر في كل صغيرة وكبيرة تخص الدواء أو العشبة فلم يكتفي بتعريفه فقط وإنما تجاوز ذلك ليصل إلى المقادير الخاصة بكل دواء وفي هذا الصدد يقول أبو القاسم سعد الله "كان ابن حمادوش يذكر عبر كل ذلك مقادير كل دواء بموازين الشائعة عندئذ"[5] وأور أبو القاسم سعد الله نموذجا من هذه المقادير على الشكل التالي:

القمحة وحدة الوزن 0,0488 غرام

القراط 4 قمحات = 0.1954

[1] عبد الرزاق محمد بن حمادوش، كشف الرموز في الشرح العقاقير والأعشاب، ص 12

[2] المرجع نفسه، ص 13

[3] عبد الرزاق ابن حمادوش، كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب، مرجع سابق، ص 172

[4] المرجع نفسه، ص 172

[5] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 434

الدرهم 16 قراط = 3.1266

المثقال 1 درهم ونصف = 4.6899

من خلال هذا المؤلف يمكننا القول بأن ابن حمادوش استطاع أن يثبت كفاءته العلمية التي من خلالها أفاد غيره.

3.2 تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج:

يعد ابن حمادوش من الرحالة الجزائريين الذين ارتبط اسمهم بالرحلة العلمية وهذا نظرا لكثرة رحلاته ذات النهج العلمي، فكل رحلاته كان يجمعها قاسم وهدف مشترك وهو البحث العلمي ومحاولة اكتشاف المجهول وفك الألغاز العلمية وهذا ما توحي به أغلب عناوين رحلاته والتي من بينها رحلته العلمية الموسومة ب"تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج" التي تحدث عنها أبو القاسم سعد الله في مؤلفه تاريخ الجزائر الثقافي فقال عنها "ومن الموضوعات الطبية التي عالجها ابن حمادوش أيضا الأعضاء التناسلية ووظائفها وأمراضها وأدويتها ورسالته تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج تتناول ذلك".[1]

إن القارئ أو الباحث من خلال العنوان يمكنه أن يعرف بأن هذا المؤلف يحمل بين طياته الحديث عن الأدوية والمزاج البشري وكيفية تعديله لأن المزاج الإنسان إذا كان معتدلا عاش الهدوء والسلام "وقد ألف ابن حمادوش هذه الرسالة في مدينة رشيد بمصر سنه 1161، وقد وصلت منها نسختان إلى الجزائر"،[2] يمكن القول بأن ابن حمادوش لم يقتصر في رحلاته على المغرب العربي فقط وإنما أيضاً اتجه إلى المشرق العربي.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 435

[2] ينظر المرجع نفسه، ص 436

وهذا التنقل والترحال بين مختلف الأقطار العربية إن دل على شيء فإنما يدل على شغفه بالعلم والسعي في طلبه حتى وإن لاقى في ذلك مشقة.

"الموضوع الرئيسي لهذه الرسالة" تعديل المزاج" هو وظائف الأعضاء التناسلية والاضطرابات التي تصيب الأعضاء التناسلية نوعا نوعان نوع غير عادي أو خارج عن قدرة الإنسان ونوع عادي مثل تعكر أو توعك القلب والمخ والكبد".[1]

متن هذه الرسالة هذه الرسالة يوحي بأنها الطبية بامتياز تصب في الحديث عن الأعضاء التناسلية لجسم الإنسان وكالعادة لم يكتفي ابن حمادوش بالحديث عن مرض فقط وإنما يحاول في كل مرة تقديم دواء أو علاج لهذه الأمراض التي قد تصيب الإنسان في أي لحظة هذا ما أورده سعد الله قائلا "ويوصف ابن حمادوش العلاج للنوع الأول فيذهب إلى استعمال الوسائل التقليدية مثل التمائم والرقى، كما يصف علاج النوع الثاني وطريقة رده الى حالته العادية التي تؤدي إلى تعديل الأمزجة المصابة يصف لذلك أدوية بسيطة ومركبة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كما أنه يذكر الأدوية أو العناصر التي تضعف الأعضاء التناسلية وتلك التي تهيج اللذة لكلا الجنسين".[2]

وبذلك يكون ابن حمادوش يبرز مهنته كطبيب من خلال مؤلفاته وكأنه يشخص المرض بتعريفه وفي الوقت نفسه يقدم دواء أو علاج لهذا المرض، وهذا ما توحي به عناوين مختلف مؤلفاته العلمية الخاصة بالطب والصيدلية إلى ما غير ذلك، وقد اعتمد ابن حمادوش في تأليفاته لهذه الكتب على العديد من المصادر التي استسقى منها معلومات" فعاد إلى كتابات العياشي وأبيقراط وغاليان وابن سينا وحنين ابن إسحاق، وابن

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر ثقافي، ص 436

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 436

رشد والدميري، والقزويني وداود الأنطاكي، والجاحظ والعطار، والبرزلي والشاذلي والبسكري".[1]

إن عودة ابن حمادوش إلى كل هؤلاء العلماء والاستسقاء من مختلف المصادر يوحي بثقافة ابن حمادوش الواسعة وحبه لمعرفة والاطلاع على مؤلفات غيره لاستزادة من العلم، ولم يكتفي ابن حمادوش على مصادر العلمية وفقط وإنما رجع أيضا إلى الأحاديث البنيوية "وهكذا نجد متنوع المصادر هنا كما في كتبه الأخرى، فهو يعتمد على الكتب جزائريين وغيرهم كما يعتمد على التجربة والمشاهدة.... واعتماده على وسائل غير العلمية في (تعديل المزاج) كالجوتة إلى تمائم والرقى، غير أن هذه الرسالة تظل هامة في موضوعها لأنها رسالة متخصصة من جهة ولأنها متأخرة إذا قيست بكتب الطب العربي الأخرى"،[2] وهذا المؤلف يعد من بين أهم المؤلفات التي أثبتت تفوق ابن حمادوش في العلوم المختلفة.

لقد شهد القرن الثاني هجري نشاطا معتبرا في مختلف الفنون والعلوم والآداب من أهمها أدب الرحلات، هذا الأخير الذي عرف الأسماء اللامعة تألقت في كتابة الرحلات وأشهرها ابن حمادوش الذي سبق وتحدثنا عن مؤلفته، هذا الأخير الذي جاب الأقطار العربية للاستسقاء من علمائها وشيوخها والاستزادة من العلم والمعرفة وكانت نتيجة كل هذا هو ما تركه لنا من مؤلفات هي عبارة عن مصدر للباحثين في شتى الميادين ومن بين أهم هذه المصادر رحلته الموسومة ب" لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" هذه الرحلة التي كانت محل دراسة وتحليل من قبل العديد من الدارسين والباحثين.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 435

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 435

4.2 التعريف بالرحلة:

تعتبر الرحلة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال من بين أهم آثار ابن حمادوش وهذا ما يؤكده أبو القاسم سعد الله في قوله "أقدمنا على تحقيق رحلة ابن حمدوش لأنها في نظرنا جزء من تراث الجزائر العربي الإسلامي كتب في عهد طالما رمى بالجمود والتخلف وتحفل بالمعلومات عن عصره سياسيا وفكريا وعن معاصريه أفكارهم وأخلاقهم ونظمهم وأذواقهم"[1] وأهمية هذه الرحلة لا تتوقف هنا وهي إنما مرآة عاكسة لحياة ابن حمادوش بعد ضياع العديد من مؤلفاته، رحلة عمل أبو القاسم سعد الله جاهدا على تحقيقها بالرغم من الصعوبة التي واجهها أثناء تحقيقه لهذه الرحلة هذا ما يظهر جليا في قوله" لو قيل لي عن الذي سيصادفني من جراء تحقيق هذه المخطوطة قبل الإقدام عليها لما صدقته أو لما أقدمت أصلا وعلى كل حال فقد أصبحت الآن أغبط المحققين للنصوص تحقيقا علميا.... ولعل الصعوبة التي واجهتني أنا بالخصوص تعود إلى أمرين الأول تعدد موضوعات النص والثاني توفر نسخة واحدة فقط".[2]

من خلال قول أبو القاسم سعد الله يدرك القارئ بأن هذه هي النسخة الوحيدة ويقول سعد الله أن هذه النسخة هي الجزء الثاني من الرحلة أما الأجزاء الباقية فهي مفقودة وهذا الجزء جاء جافلا بالموضوعات المختلفة التي سجلها ابن حمادوش أثناء رحلته إلى المغرب منطلقا فيها من وطنه الأم الجزائر حيث يقول سعد الله "يجب التنبيه إلى أنه ليس كل كتاب الذي عبارة الجزء الثاني خاصا بالمغرب إذ فيه أخبار أيضا عن تونس والجزائر

[1] أبو قاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش المسماة لسان المقال في نبأ والحسب والحال، تج: أبو القاسم سعد الله، ورشة أحمد زبانة، الجزائر، 1983، ص 23

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 19

وغيرهما.... رحلة قام بها المؤلف لطب العلم والتجارة في مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس".[1]

وبما أن ابن حمدوش كان محبا للعلم جاءت رحلته تزخر بالمعلومات الكثيرة عن عصره سياسيا واقتصاديا وفكريا واجتماعيا عما تضم أخبارا عن معاصريه وعن عادات وتقاليد سكان المغرب ومقارنتها بالعادات الجزائرية هذا ما سيظهر لنا أثناء تعرضنا للحديث عن موضوعات هذه الرحلة.

تمهيد:

تضمنت هذه الرحلة مجموعة من الموضوعات والمضامين فقد تناول الرحالة رحلته بكل جوانبها فقد تعددت الموضوعات بتعدد طريقة سردها وأسلوبها ومناهجها ومقاصدها حيث صور لنا الواقع ووصف الأشخاص والأحداث التي شاهدها وقدم لنا ملخصا حول الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية في ذلك الوقت فقد ألم بكل الجوانب ببراعة وموضوعية ودقة في التصوير والسرد.

من الموضوعات التي علاجها الرحالة وضمنها في رحلته هاته تحدثه عن خروجه من ميناء الجزائر في 14 فبراير 1743 إلى مدينة تطوان مرورا بجبل طارق "واليوم الأربعاء سادس عشر فبراير ألقينا المراسي بجبل طارق ونحن على وجل، إذا به خرج لنا رايس المرسى فسألنا، فلما أخبره رايسنا فرانصيص وأنه في كروة أهل الجزائر فخرجنا إلى الموضع الذي أمرنا، وبقينا هناك بقية يومنا والخميس"[2]

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر ثقافي، ص 384

[2] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمدوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تج: أبو القاسم سعد الله، دن ورشة أحمد زبانة، الجزائر، 1983، ص 30

- إن ابن حمادوش يعتمد كثيرا على التسلسل التاريخي وذكره للوقت بالضبط التام.
- ذكر كذلك ابن حمادوش لقاءه بالشيخ الورززي في جامع لكاش "وفي يوم الخميس لقيت الشيخ الورززي في جامع لكاش فأتاني بالبخاري ومسلم وموطأ مالك".[1]

لقائه بالشيخ البناني في المغرب:

"ونزلت في فندق السرايري في بيت مقابلة عين الشمال كرائها ستة عشر موزونة في كل شهر، فلقيت الشيخ أحمد البناني الفاسي عند باب داره لأني كنت أتيت له بأمانة من الجزائر فدفعتها له وافترقنا".[2]

حضوره دروس البناني" فدخلت تطاون وصليت الظهر بها.... وكنت انظم قصيدة لأدفعها للشيخ امحمد البناني، فعن اليوم السبت دفعتها له حين افترقنا من قراءة البخاري، وكان أول يوم حضرت درسه من بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس"[3]

قصيدة المؤلف في البناني "الحمد لله، وفي الأيام المتقدمة ذكرها بالبلد المذكور وجدت العلامة سيدي امحمد البناني الفاسي، نفعنا الله به أمين، فقدمت له قصيدة صورتها بعد الحمدلة".[4]

لقاءه بالشيخ البناني كان فرصة جيدة للأخذ منه والتعلم على يده وأخذ دروس العبر لأن الشيخ البناني اختص بالأدب والبحث المعرفي حتى أصبح في حد ذاته شعلة أدبية كبيرة.

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمدوش الجزائري، المصدر السابق، ص 35

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 32- 33

[3] المصدر نفسه، ص 33- 34

[4] المصدر نفسه، ص 39

أ. العادات والتقاليد (المغرب والجزائر)

1. بالنسبة للعادات والتقاليد الاجتماعية والدينية في المغرب فقد ذكر منها ابن حمادوش طريقة فرض المكوس في ميناء" تطوان" التي اعتبرها عاد قبيحة وكانت عاد قبيحة بتطاون ابتدعوها، أنهم يأخذون كلما معك، ويحملونه إلى دار العشر ثم بعدما تنقضي أشغالهم من البحر تأتي العدول التي كتبت في البحر فتقابل كتابها مع العدول الذي بدار العشر ثم يدفعون مالا منفعة لهم فيه ثم يتخلصون إلى أكل أموال الناس بالباطل فيفتحون كلها معك ويأخذون خمسة لكل مائة مكسا.[1]

تطرق في هذه المسألة إلى عادة فرض المكوس والمقصود بهما هو أكل مال الناس بالباطل وأخذ حقوقهم دون سابق إنذار وهذا أمر فيه ظلم للأفراد وانتهاك حقوق الناس، وهذا نوع من الفساد الأخلاقي في المجتمع وطغيان الأقوياء على الضعفاء.

2. ويصف لنا عيد الأضحى في تطوان "وفي يوم السبت صنع عيد الأضحى بغتة كان مطر غزير وسحاب ليله ونهاره إلى الضحاء أتت بينة من طنجة فصنع العيد وذهبنا إلى المصلى فخرج قائدهم في جماعته وبين يده حربة عالية طويلة جدا..... وخطب بنا إمام نسيت اسمه هو عظيم جامع القصبة، وكان خطيب جامع الباشا في حياته ما رأيت فيما رأيت غير الشيخ الزيتونة، مثله جماعة فيها مواعظ ورقائق وبشائر وتحذير".[2]

عيد الأضحى هو عيد الأمة العربية والإسلامية في كل سنة حيث ذكر فيه كل الوقائع والأحداث التي تحدث في هذا اليوم السعيد المفرح.

3. تضمنت موضوعاته كذلك العادات الجزائرية والتي هي جملة من العادات الاجتماعية الشائعة آنذاك منها الصلاة المعهودة في الجزائر عقب ختم البخاري ورش الخدم لماء

[1] أبو القاسم سعد الله، رحله ابن حمدوش، المصدر سابق، ص 31- 32

[2] المصدر نفسه، ص 107

الورد على الناس بالجامع الكبير، وصف كذلك عادات أهل الجزائر في ليلة القدر وفي عدة مناسبات وقارن بينها وبين عادات أهل المغرب أيضا "فلما التقينا بعد صلاة ظهر هذا اليوم لنلقف البخاري الدراية بعد الصلاة فقرأ المصلي بباب الوضوء قبل الغسل ثم تبع الشيخ شرح ذلك وصلينا على النبي الصلاة المعهودة في الجزائر عقب البخاري وهي اللهم صل أفضل الصلاة على أشرف مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.....لأنها ليلة سبع وعشرين بالرايا"[1]

4. ومن عادات أهل الجزائر كذلك المولود النبوي الشريف وهي عادة مميزة بالنسبة للشعب الجزائري والأمة الإسلامية جميعا هذه العادة فيها نوع من الفرح والسرور إضافة إلى أكلات طيبة متنوعة التي تميز كل منطقة، وذكر الصلاة المعهودة عند ختم البخاري وكلها تمثل امتيازا بالنسبة لعادات الجزائريين التي حافظوا عليها وتناقلوها أبا عن جد.
5. وصف عادة ليلة القدر "وعادة متوالي الجامع الكبير يفرغ قنطار أو أكثر شمع يفرقه على ثلاثين شمعة خضر ما بين ثلاثة أرطال.[2]

إلى الأربعة في كل واحدة ويأتون بهم إلى دار المفتي أو الوكيل... فإذا صلى العصر خرج ذلك المأذون أو غيرهم في أيديهم ويوظفوا بهم البلاد... وأشعلوهم مع ما يكثرون من قنادل والقوارير، ويحيون الليل كله إلى الفجر"[3]

6. عادة المولد النبوي في فاس والجزائر "وفي ذهابي له لقيته الطبالين والعياطين وآلات الطرب كلها في السوق، ذاهبين بأربعة قباب من الشمع كل واحدة من لون أحدها

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمدوش، المصدر السابق، ص 125

[2] المصدر نفسه، ص 125

[3] المصدر نفسه، ص 126

خضراء وأخرى بيضاء وأخرى حمراء والرابعة نسيت لونها أخف مما يجعل في الجزائر عندنا"[1]

ب. أخبار علماء المغاربة في مكناس:

فقد لقنني الشيخ عبد السلام القباب "بلغني أنه من خيارهم فلم أجده يحسن شيء غيره علم التوقيت وهو موقت جامع النجارين والشيخ عبد القادر الفاسي موقف الجامع الكبير فدخلت مكناس عند الزوال من يوم الأحد السادس وعشرين صفر من عام 1156 الموافق عاشر أبريل من سنة 1743 مسيحية"[2]

كما تحدث عن أخبار العلماء في المغرب وعن مجهوداتهم وما يقومون به من دروس ومحاضرات ومداخلات فيما بينهم.

ت. الشيوخ الذين أخذ عنهم في المغرب:

1. نذكر الشيخ علي بن محمد بركة التطواني "شيخنا العلامة الناسك العابد المنقطع الزاهد المفرد المكثر العبادة والمتصف بصفات الورع والزهادة الشيخ العظيم البركة الحاج الأشقى الأبر أبو الحسن"[3]

سيدي علي بن محمد بركة التطواني.... قرأت عليه جمع الأربعين النووية وبعض صحيحي البخاري ومسلم، والموطأ والشمائل"[4]

2. محمد بن قاسم بن زاكور: بالإضافة إلى قراءته على الشيخ محمد بلقاسم بن زاكور "شيخنا العلامة المحقق المدقق الأديب الشاعر المفلق أبو عبد الله محمد بن قاسم

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمدوش، المصدر السابق، ص 84

[2] المصدر نفسه، ص 77

[3] المصدر نفسه، ص 47- 48

[4] المصدر نفسه، ص 48

بن زاكور صاحب التأليف العجيبة والتصانيف الأنيقة، قرأت عليه شرحه على الخزرجية بلفظي إلى أخرى، وكتب لي عليه إجازة وجزءا من شرحه على الحماسة وديوان شعره وشرح شيخنا اليوسي على قصيدته الدالية وجميع شرح المحلي على جمع الجوامع للسبكي".[1]

لقد أخذ الرحالة من شيوخ أكفاء درسوا الأدب والمعارف والدين وكانوا خير خلق لخير سلف، فقد تبين لنا من خلال ما درسناه أن الرحالة كان كثير الاتساق والمحاذات بالعلماء والشيوخ وهذا جلي من خلال سرده للقاءات الواردة بينه وبين شيوخ وعلماء العلم والمعرفة.

ث. العلماء الجزائريين الذين أخذ عنهم:

ومن العلماء الجزائريين نذكر" محمد بن ميمون" الذي جالسه وأخذ منه ودرس عليه ومعه "وفي يوم الأحد تاسع عشر جمادى الأخير موافق سابع يوليه ابتدأت على شيخنا ابن ميمون سرد قصيدة مالك بن المرحل.... وفي يوم الأربعاء عرض علي الشيخ الاتقان في علوم القرآن تأليف الشيخ السيوطي فقرأت فيه فصل ما نزل من القرآن على لسان الصحابة،[2] وموضوع فواتح السورة وأبيت سرده لطوله"[3]

إن لقاء ابن حمادوش بابن الميمون كان لقاءا حاضرا إذ أنه أخذ عنه المعارف والعلوم وحضر له الدروس التي قدمها.

2. **أحمد بن عمار**: أخذ ونهل كذلك من ابن عمار وكنت اجتمع معه إما في بيته في مدرسة الجامع الكبير وإما بالجامع الكبير، وأكثر الطلبة حاضرون شاهدون زاعيمين من

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمدوش، المصدر السابق، ص 58

[2] مصدر نفسه، ص 216

[3] مصدر نفسه، ص 216

حسدهم فلما ظهر ما يسوءهم امتنعوا من الشهادة على خطه حتى انتذب منهم الأديب الأريب ذو القلب الناطق والقول الصادق.[1]

تعليق: وبعدما نهل ابن حمدوش من العلماء الجزائريين الذين التقى بهم وهذا يندرج ضمن المضمون العلمي للرحلة انتقل إلى المضمون الاجتماعي الذي تمثل في وصف غرائب مارئ.

ج. غرائب مارئ في الطريق ابن تطوان ومكناس:

1. من المشاهد الغريبة التي رآها ابن حمدوش وهو في طريقه بين تطوان ومكناس "من الغريب بما رأيت في هذا الطريق قرب المرج الطويل، ووجدتهم يحصدون الشعير في خامس أبريل وفي هذا المرج السمك تسعة بوري مقلوا في ودكة بموزونة، ومن غريب ما رأيت أني رأيت غرتين كل واحدة في أفحصها فوق الماء تحضن بيضها.... ومن غرائب ما رأيت أن في هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك ويطير والبيض، ويعتدون عليها من ناحية إلى أخرى"[2]
2. من المشاهد التي رآها كذلك رسم قارب من ورق البردي "وهذه الصفة القارب المذكور وتلك الخطوط المحوقة داخله هو موضع ربطه بالخرم، حبال الدوم الرقاق، وهذا غريب جدا ما رأيت مثله قط"،[3] ولا يضع تحته لا فرع ولا قرب بخلاف ما يوجد في النيل فإنه لا يبلغ هذه الصحة.[4]

إن مشاهدة الرحالة لقارب مصنوع من ورق أبدي فيه الدهشة والغرابة وهذا ما أبدى الرحالة وكأنه غير مصدق لما رآه هو وبالتالي قام يسرد ذلك في رحلته هاته.

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمدوش، المصدر السابق، ص 259- 260

[2] المصدر نفسه، ص 73- 74

[3] المصدر نفسه، ص 74

[4] المصدر نفسه، ص 74

3. شاهد كذلك مشهدا أكثر غرابة "ومن غريب ما رأيت أن من القصر إلى مشروع الرملة أكثر بقرها بيض فإن لم تكن كلها بيضا ففيها شيات ما رأيت مثل هذا المحل شدة بياض البقر، وأما وادي سب فقطعنا بقارب من عود كبير يحمل خمس بهائم وخمسة أحمال وسبعة رجال يأخذ موزونة ونصف"[1]

تعليق: بعد سرد ابن حمدوش غرائب ما رأى والتي أثارت في نفس الدهشة انتقل للحديث فيما يعرف بنصف الدين ألا وهو الزواج واصفا عقود الزواج في تلك الفترة.

ح. في عقود الزواج:

من خلال ما ذكره الرحالة يمكن أن نعرف أنواع العملة المتداولة في ذلك الزمن وكذلك نوع الصداق وقيمته فالقفاطين وقناطير الصوف والنقود كانت تشكل القاعدة العامة للصداق.

1. فقد ذكر عقد زواجه "الحمد لله، تزوج على بركة الله وتوفيقه المكرم الشاب عبد الرزاق ابن الحاج محمد ابن حمادوش مخطوبته فاطمة بنت عمه المكرم الحاج أحمد الدباغ... على صداق مبارك قدره ما بين نقد محضر وحال منظر وعالي مؤخر بستمائة دينار... وقفطان واحد مؤبرا وفردان اثنان وثلاثة قناطير صوف وأوقيتين ثنتان.[2]

لقد شكلت عقود الزواج مؤشرا بارزا في رحلة ابن حمدوش كونها صور الزواج في ذلك الوقت وما يقتضيه من صداق وعملات وقد صوره لنا الرحالة في عقد زواجه الأول وهذا جلي في رحلته المميزة.

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمدوش، المصدر السابق، ص 74- 75

[2] المصدر نفسه، ص 241

2. أشار كذلك إلى عقد زواج أخته" الحمد لله تزوج على بركه الله وعونه وعلى منهاج الشرع القديم وطريقة... السيد علي الخرار بن الحاج علي، أمين الحرارين كان مخطوبته كريمته البنت أسيا البكر.... على صداق مبارك ميمون قدره ما بين نقد محضر وحال منظر ومالي مؤخر أربعائة دينار جزائرية خمسينية العدد من سكة التاريخ وقفطان واحد... وقنطران اثنان صوفا"[1]
3. كما ذكر مجموعة من خطب الزواج كتبها بنفسه "الحمد لله الذي أحل لنا النكاح وحرم علينا السفاح، والصلاة والسلام على من بذكره القلوب ترتاح، وبعد يقال لأبي الزوجة أو وليها صل على النبي وقل زوجت ابنتي فلانه من فلان على صداق ما بين نقد إلخ، ويقال للزوج صل على النبي وقل قبلت منه، وغلي ما قال على نحو ما هو مفصل".[2]
4. خطبة أخرى يقول فيها ابن حمادوش لا أدري لمن هي" الحمد لله الذي أحل بنعمته النكاح، وحرم بحكمته السفاح ورفع عنا الحرج في دينه والجناح... وبعد"[3]

تحدث الرحالة عن عقود الزواج كثيرة كتبها بنفسه ويقول فيها أن النكاح حلال ويحرم السفاح مركز كثيرا على الوالي الذي هو أساس الأركان

تعليق: بعد ذكر الرحالة كل ما يخص عقود الزواج وما تقتضيه من صداق تحدث عن مؤلفاته المختلفة وفي جميع العلوم من طب وفلك والهندسة.

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمدوش، المصدر السابق، ص 243- 244
[2] المصدر نفسه، ص 244- 245
[3] المصدر نفسه، ص 245

في الهندسة:

1. ألف ابن حمادوش في مختلف العلوم الطب والفلك والهندسة وهذا ما يدل على ثقافته وشغفه الواسع "وفي يوم الخميس الموافق عشرين من صفر ألفت فتح المجيب في علم التكعيب وسببه أني كنت أطالع تأليفا في المساحة والهندسة من تأليف النصاري، فوقعت على مسألة من علم التكعيب فأعملت فكري حتى أجرجتها ثم بدا لي أن أؤلف فيها".[1]

اشتهر الرحالة بالعلم والمعرفة والطب ومختلف العلوم منها الهندسة والفلك وهذا دليل على أفكاره الواسعة ومعارفه التي تطورت وبرزت باجتهاده وأخذه عن العلماء الذين حملوا مشعل المعارف والعلوم التي صخرت له طريق الإبداع.

في الفلك:

2. بالنسبة لتأليفه في الفلك ذكر مجموعة من التواريخ التي تعلمها "وفي يوم ة سادس وعشرين ذي القعدة ابتدأت تأليفا في علم الفلك، جمعت فيه غريب ما أتعلم فمنها سبعة تواريخ فيه كلها تعلمتها العربي والمسيحي والاسكندري كنت تعلمتها قبله، وزدت في فيه الفارسي والملكي والقبطي والعبري وسميته".[2]

ضبط الرحالة التواريخ والسنوات وركز عليها بدقة في رحلاته كلها ترجمت قدرته على الإحاطة بالموضوعات المهمة والسرد وكذا وصفها وفق منهج ليختاره الرحالة بنفسه.

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 265

[2] المصدر نفسه، ص 264

في الطب:

3. إضافة إلى كتابه "الجوهر المكنون" في الطب وفي يوم الاثنين أول يوم من ذي الحجة ابتدأت تأليف الجوهري المكنون.[1]

من بحر القانون تأليف حسن في الطب... وقد جعلته مرتبا على أربعة كتب الكتاب الأول في سموم ودوات السمو وعلاجاتها، الكتاب الثاني في الترياقات وما يجري مجراها.... وبعض المعاجين التي يضطر إليه المرء، الكتاب الثالث في الأمراض ونويت أن أجعل الكتاب الرابع في حل ألفاظ المفردات وتعريبها ما أمكن"[2]

كان لابن حمادوش تأليف متنوعة ومختلفة التي نبغ فيها وبين قدرته على الإلمام بكل جوانب العلمية والأدبية.

في البونية:

إضافة إلى تعليمة في البونية إلى يوم السبت حادي عشر ربيع الأول الموافق لثاني وعشرين مارس خرجت لباب الواد مع أسط محمد ابن المبوت باجي بمهراس صغير لنتعلم رمي البونية، فتممت ما بقي لي والحمد لله وأخذت علم البونية بارتفاعها... فأنا من علمائها والحمد لله.[3]

تعليق: بعد ذكر مؤلفاته في جميع العلوم من طب وهندسة وفلك تطرق إلى الحديث عن أهم الحوادث التي وقعت في الجزائر في تلك الفترة.

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 160

[2] المصدر نفسه، ص 161- 160

[3] المصدر نفسه، ص 254

خ. **الحوادث في الجزائر:**

1. أورد الرحالة ابن حمادوش حادثتين مهمتين في الجزائر الأولى الحجر الصحي الذي كان تفرضه الجزائر على الحجاج وفي ثالث رجب الموافق آخر يوم من يوليه قدم علينا مركب من الإسكندرية بالحجاج وفيه الوباء فمنعهم الباشا الدخول حمية من أن يقوم ممرض على مصطلح.[1]

تحدث الرحالة عن الحادثة التي وقعت وهي منع الباشا لدخول مركب الحجاج للإسكندرية حيث تطرق إليها وفق منهج وصفي سردي، فسرد ووصف الحادثة كما وقعت بمشاهدها

2. الحادثة الثانية تمثلت في توقيع الصلح بين الجزائر والدنمارك "وفي يوم الجمعة وقع الصلح بين الجزائر والدنمارك"[2]

تعليق: بعدما سرد لنا ابن حمادوش الحوادث التي وقعت في الجزائر وتحدث عنها مجملا تطرق إلى الحوادث التي في المغرب وصورها لنا كما هي.

د. **الحوادث في المغرب:**

إن ما كتبه الرحالة عن المغرب يمكننا تقسيمه إلى ثلاث وحدات الحوادث والعادات والعلماء وأهم حديث هو ثورة أحمد الريفي باشا تطوان على السلفان عبد الله فهي تروي أحداث مهمة استسقاها من الواقع المعاش "وقع قتال بين العسكرين.... وذلك أن الباشا أحمد بن عبد الله الريفي كثر ماله وتجبر في نفسه وطغى على عباد الله حتى قرر الموكوس"[3]

[1] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش، المصدر السابق، ص 121

[2] المصدر نفسه، ص 257

[3] المصدر نفسه، ص 75

من خلال دراستنا لمضامين وموضوعات رحلة ابن حمادوش يمكن القول أن الرحالة قام بوصف رحلته إلى المغرب ووصف العادات والتقاليد الاجتماعية والدينية مثل طريقة فرض الماكوس في مناء "تطوان" وكذلك عيد الأضحى في تطوان، والصلاة المعهودة في الجزائر، التي كانت تعبر عن المجتمع الغربي والجزائري على حد سواء فتسمت الرحلة بالجد والعطاء والترحيل المتواصل غرضها إبراز قدرته الأدبية والعبقرية اللامتناهية فكانت رحلته مميزة لأنه قام بوصف الوقائع والمشاهد كما شاهدها دون تحريف مثل رسم قارب من ورق البردي، وكذلك حصد الشعير في خامس أبريل فقد كانت موضوعاته في قمة الأدبية بأسلوبه المميز.

الفصل الثالث

التشكيل الفني للرحلة في لسان المقال

تمهيد:

لم تكن الرحلات مجرد تجوال في الآفاق هدفه التسجيل الجغرافي ورصد المشاهد والعمران فحسب بل كانت تلك الرحلات مجالا رحبا للنواحي الفنية والجمالية والملامح الأدبية والأسلوبية والتحليل الدقيق الموسوعي لطبائع الشعوب من وجه آخر، واعتبرت هذه الرحلات مصادر مهمة لإلقاء الضوء على الثقافة العربية في عصورها المختلفة ومن بين أهم الرحلات الرحلة التي هي محل دراستنا الموسومة "بلسان المقال في النبأ عن السبأ والحسب والحال" لابن حمادوش الجزائري هذه الرحلة التي تتمتع بقيمة نادرة كجزء من التراث العربي الإسلامي الجزائري، ومصدر لمعرفة الأحوال الاجتماعية والثقافية والسياسية وكثيرة ذاتية للمؤلف نفسه.

1. الفنون النثرية في لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال

أ. المقامات:

لقد جمع ابن حمادوش الجزائري في هذه الرحلة بين الشعر والنثر محاولا بذلك محاكاة أساليب الأدباء المتقدمين والمعاصرين له أمثال المفتى **محمد بن نيكرو وأحمد بن المبارك** هذا ما جعل رحلته تحتوي على الكثير من الملامح الأدبية الجمالية التي برزت في اختيار الألفاظ وحسن الأسلوب وتوظيف الفنون النثرية التي سادت من جماليات الرحلة ومن بين أهم هذه الفنون نجد المقامة التي تعتبر من "الفنون النثرية التي وجدت لها وسيلة في اللغة العربية تخلقت من أمشاج عربية لغوية وأدبية وقيم الإسلامية وإنسانية عامة"[1] ولقد وظف ابن حمادوش في هذه الرحلة ثلاث مقامات اختلفت مواضيعها وسبب تأليفها، مقامات كتبها الرحالة على ما يبدو وهو في المغرب لذلك "فهي تصور تجربته

[1] عبد السلام عبد الحكيم العبد، الأدب البياني والقصة العربية في النقد الحديث دط، مؤسسة الشباب الجامعة الإسكندرية، القاهرة، 1989، ص 25

الشخصية وتعكس عليه الخاص وأجواءه الذهنية"[1]، كما أن هذه المقامات الثلاث تعطينا صورة واضحة عن شخصية ابن حمادوش، فجاءت المقامة الأولى وصفا لحالته النفسية وهو في المغرب وبين فيها هدفه من زيارة المغرب، والمقامة الثانية سماها بالمقامة الهركلية والمقامة الثالثة سماها بالمقامة الحالية.

- **المقامة الأولى (127):**

تبدأ هذه المقامة بالحمدلة وهي مقامة وصف فيها المؤلف حالته النفسية عند خروجه من تطوان متوجها إلى مكناس كما أخبرنا فيها عن هدفه من زيارة المغرب بمرافقته لاثنين من التجار والطريق الصعبة التي مر بها، ووصف فيها أيضا الصعاب والأخطار التي واجهوها ممن يسميهم بالعربان أو اللصوص كما تحدث فيها أيضا عن غرائب ما شاهده وقد جاء في نص المقامة ما يلي "الحمد لله طحى بي ضيق الأسباب وهو الاكتساب إلى أن خطرت من شدة الإياس، إلى بلاد الملك مكناس، أخوض الغمار لأجتني الثمار، وأقتحم الأخطار لكي أدرك الأوطار وكنت لقفت من أفواه العلماء ووصايا الحكماء أن الخطر غرور وأن المسافر مبرور، فشددت منطقي لكي أدفع أزمتي، ورافقت اثنين من التجار كأنهما من الأبرار فاكترينا[2]، من حمار كأنه أراد ابتدائي بالعار فرددت عاره وخبأت ناره بما فيه أوطاره حتى يحمد جواره فخرجنا من تطوان إلى السفر.....، فبتنا بسيدي علي العسر فخرج إلينا أقبح العشرة كأنه مغري ومنه زرنا السيدة ميمونة تاكناوت، التي ردت يمين سيدي أبي سلهام بجلبها من فاس البنات، وبتنا في أول المرج الطويل

[1] مقدم فاطمة، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش، مذكرة لنيل شهادة الماجستر في اللغة العربية، جامعة وهران، الجزائر، 2010- 2011، ص 45

[2] عبد الرزاق ابن حمدوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، أبو القاسم سعد الله، مؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ورشة أحمد زبانة، 1983، ص 71

* (127) عنوان في الأصل.

الذي به طير الماء من غروبط وغيره كثيرة قليل ومنه قطعنا واديا سب، الذي كل يجوزه بالقارب حسب كأنه نيل مصر أو قطعة من البحر ومنه إلى محملة العبيد في سويقة داده في الفندق القديم لا الجديد، ومنه إلى النوينيات عند الكرم الذي ليس فيه رحمة ولا كرم من أولاد مختار لا أجير في تلك الدار...."[1]

لقد جاءت هذه المقامة باللغة العربية الفصحى الراقية، كما طمنها ابن حمادوش السجع والبيان ما جعل منها مقامة راقية ولقد ختمها بقصيدة تبلغ تسعة عشر بيتا ذم فيها أولاد مختار على بخلهم وسوء معاملتهم حيث قال فيهم:

وليلة مختار يبيت بها هم مدى الدهر لا يرجى ولا يجور عن الهم

وآل قريم كلهم مجمع الردى يسيئون بالأضياف في القول والحكم

قريم وسفلين ومختار لخشم تواطو وعن أكل وخضب من الدم[2]

والواضح من هذه الأبيات أن ابن حمادوش كان مستاء من أولاد مختار الذين لا يقدمون لا يقدرون الضيف ولا يكرمونه.

- **المقامة الثانية:**

وهي المقامة التي سميت بالمقامة الهركلية (170) وبدأها بالحمدلة وفي هذه المقامة نجده يصف فيها ليلته التسعة التي قضاها بأحد فنادق مكناس المسمى فندق الرجلة، وفيه سمع شجارا وضجيجا تبين له من خلاله أن امرأة كانت تطالب رجلا كان يقيم في الغرفة المجاورة له بدفع كيت وكيت مقابل ما فعله معها، ويذكر ابن حمادوش أنه عاد إلى النوم

[1] ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، للسنان المقال في النبأ عن السبأ والحسب والحال، ص 72

[2] المصدر نفسه، ص 74

بعد أن هدأت الأصوات ويقول في هذه المقامة "الحمد لله خدى (171) بي حادي الرحلة إلى أن دخلت في بعض أسفاري هركلة فنزلت بها في خان، كأنه من أبيات النيران أو كنائس الرهبان، بل لا تشك أنه من أبيات العصيان، فلذلك لا يسر به الناظر، ولا يشرح له الخاطر، فاختصت منه بحجرة أو نقرة في حجرة وكأني وقعت من السماء في حفرة أو ابتعدت أفعوان فدخلت حجرة، فغلقت بابي....، فلم يوقظني إلا جلبة الأصوات وتداعي القينات والتدافع بمنع وهات....، وإذا بجاري يبيت بيت (172) يحاسب قينة على كيت وكيت وهي تقول له فعلت كذا وكذا فعله وتدفع أجره فعله..."[1]، ولقد ختم ابن حمادوش كعادته هذه المقامة بأبيات شعرية تدور حول نفس الموضوع التي كتبت فيه المقامة وهي مقامة كتبت بالعربية الفصحى، بأسلوب وألفاظ سهلة يفهمها المتلقي خالية من الغموض، مقامة شبه فيها الحادثة التي وقعت بين الرجل جاره في الفندق والمرأة بحادثة هرق اليونان، ومرة أخرى ومن خلال هذه المقامة يثبت ابن حمادوش غزارة معرفته وثقافته وسعة علمه ما جعل مقاماته تخضع لمقاييس المقامة العربية المعروفة.

- **المقامة الثالثة: 511**

وهي المقامة التي سماها ابن حمادوش بالمقامة الحالية، وصف فيها حالته بين الناس وكساد تجارته والخسارة التي لحقت به، حتى أحس بدنو أجله كما تحدث فيها أيضا عن شخص رمزي تعلق به حبا، ومع ذلك سبب له التعب والشقاء ويقول في نص هذه المقامة "الحمد لله محو الأحوال ومرخي البال، ومقلب الأمور في الدهور والصلاة والسلام على خير الأنام المبشر بالفرج بعد الشدة، والمنذر بالعناء بعد اللذة، فقال تعالى: (فإن مع

[1] ينظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، مصدر السابق، ص 78

(170): يقصد بالهركلية بالقاف المعقوفة الهرج ونحوه

(172): أي اللاصقة بينه لبيتي

العسر يسرا، إن مع العسر يسرا)[1] وبعد لما أن جرى القضاء المحتوم والأمر الملزوم بأن خف الريش وأكل الجويش، ومضض العيش، فخلفني الجيش، وكثر الصرف وقصر الطرف وجفت الأخوان وقلت الأخدان، وغلب الزمان، فارتفعت الأقران وصعبت التجارة، وسهولت الخسارة، قرنت بجارة غرة، عيشتها مرة....."[2]

يتبين لنا من خلال هذه المقامة تحسر ابن حمادوش عن خسارته في التجارة وأن حالته كانت سيئة وعن تشاؤمه من الزمن الذي وصل إليه ناس، زمن كله غش وخداع، ولقد جاءت مقامته عتبة بالسجع، مركبة من جمل قصيرة ألفاظها عذبة أسلوبها راقي ولغتها سهلة وبسيطة الفهم، هذا يبين أدبية المؤلف العالية، ومن خلال هذه المقامات أيضا نتوصل إلى أن الأديب شخص يعيش ضمن مجتمع له مشاكله وثقافته وأتراحه وأفراحه "والأديب يتأثر ويؤثر بالأحوال السائدة في مجتمعه فيكتب عنها ويحللها من خلال منظر الفردي الذاتي لهذا يمكن لنا أن ندرس الأوضاع الاجتماعية السائدة في وقت ما من خلال الإنتاج الأدبي نثرا كان أو شعرا"[3]

هذا ما جعل مقامات ابن حمادوش مرآة ناصعة انعكست عليها الحياة بمناحيها المختلفة اجتماعية وأدبية وعقلية وحتى أخلاقية.

ب. الرسائل:

[1] سورة الشرح الآيتين، 05-06

[2] ينظر: عبد الرزاق بن محمد الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 164

* (511) نرجع أن المؤلف يرمز بها إلى زوجه أم أولاده زهراء، كما أشار إلى ذلك في النص.

[3] مقدم فاطمة، خصائص السرية في رحلة ابن حمادوش، المرجع السابق، ص 22

تلعب الرسائل دورا أساسيا وفعالا في مد رباط الأخوة والصداقة بين الناس لهذا حظيت على مر العصور باهتمام العلماء والأدباء والأصدقاء والأحبة فهي تساهم بشكل أو بآخر في توطيد العلاقات الاجتماعية.

وفي رحلة "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" عثرنا على رسالة إخوانية عبارة عن رسالة تعزية تلقاها ابن حمادوش من المفتى "محمد بن حسن" عقب وفاة ابنه الحسين، وفيها عبر المفتي عن تعازيه الخالصة، كما اعتذر أيضا من عدم حضوره شخصيا إلى الجنازة وقد جاء في نص هذه الرسالة ما يلي "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم إلى الجانب الكريم العالي، جامع أصناف المعالي، الذي انتهت به أماني الوداد[1] ومحبة الأخوة وحسن الصداقة والاعتقاد، مولانا الفاضل الكامل السيد حسني سيدي الحاج عبد الرزاق، سلام عليكم ورحمه الله وبركاته واليه فقد بلغنا ما أحار الأذهان وأشجاها وأطار النوم من الأجفان وأبكاها....، بالذي صدع أعشار القلوب وأفاض على صحن الخد الدموع....، إنما صبر الكريم على الرزية أجمل والله تعالى يلهمنا وإياكم الصبر ويعظم لكم الأجر".[2]

وتعتبر هذه الرسالة تعزية بعث بها المفتي محمد بن حسين لابن حمادوش إثر المصاب الجلل الذي أصابه في وفاة ابنه، وهي رسالة تبين مدى المحبة والأخوة التي كانت تربط المفتى بابن حمادوش.

نلاحظ أن المفتي محمد بن حسين اتبع المقومات الأساسية للرسالة حيث ابتدأها بالبسملة والصلاة على النبي المصطفى، كما ذكر موضوع الرسالة وهو تقديم التعزية، والاعتذار من عدم حضوره الجنازة مبررا ذلك بأنه هو الآخر تعرض لمحنة ألمت به، إلا أنه لم

[1] ينظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان مقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 150

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 151

يفصح عنها وبعد ذلك ختم رسالته بآيات قرانية وحث فيها ابن حمادوش بالتحلي وبالصبر فجاءت خاتمة الرسالة كما يلي "وقد ندب الله تعالى خاصة خلقه إليه فقال جل من قائل (واصبر ما صبرك إلا بالله)[1]... وقال سبحانه: (فاصبر صبرا جميلا)[2] ومثلكم بهذا أجدر وأعلم وأشهر"[3]

ث. التقاريظ:

عندما نتحدث عن النثر أو فنونه فإننا: "نعني بالنثر هنا النثر الفني أو الأدبي وهو يشمل المقامات والرسائل الرسمية الديوانية والإخوانية والوصف والتقاريظ....، ولقد كان الأدب الجزائري في العهد العثماني غنيا ببعض هذه الفنون كالرسائل والتقاريظ".[4]

لقد أورد بن حمادوش في رحلته مجموعة من التقاريظ له من علماء الجزائر ولعل أجودها تقريظ أحمد بن عمار لكتابه" الدرر على المختصر" الذي وضعه في المنطق "وكان ابن عمار من أقطاب الصنعة الأدبية نثرا وشعرا، وكان غالبا ما يسجع ويكثر من المحسنات البديعية"،[5] ونموذج من هذا التقريظ "أما بعد الحمد لله حمدا لله الكافي من استنكافه والصلاة والسلام على سيدنا محمد سر الوجود ومعناه، وعلى آله وأصحابه أولى الفضل والجاه فيقول العبد الفقير إلى عفو مولاه الغني القدير، أحمد بن عمار بوأه الله دار القرار، وأدرجه في سلك المصطفين الأخيار، لما جمعتنا المقادير مع شيخنا الأستاذ التحرير، حبر صناعة الآداب وقطب ذوي الفصاحة والبلاغة الأقطاب، سيدي أحمد بن محمد الوزري عالم قطر المغرب قاطبة ومدرسة وبأني ركن العلم ومؤسسه، ببلدتنا الجزائر

[1] سورة النحل، الآية 127

[2] سوره المعارج، الآية 05

[3] ابن حمادوش الجزائري، مصدر سابق، ص 151

[4] ينظر: أبو القاسم سعد، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 171

[5] المرجع نفس، ص 183

المحروسة بعين الملك القادر أواخر رمضان سنة تسع وخمسين ومائة وألف من هجرة من له العز والشرق، كنت اختلف إليه مرة بعد أخرى فأجد محبنا[1]، ولقد ختم هذا التقريظ ببعض الأبيات الشعرية جاءت على النحو التالي:

هنيئا هنيئا أيا مختصرر بشرح البديع جموع آخر

وبشرى لقاؤك المرتضى بما قد جواه كتاب الذرر

يقول أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي عن هذا التقريظ" كان المقرظ يمزح في تقريظه بين النثر والشعر ويحفل العهد العثماني بعدد من هذه التقاريظ....، وكان غالبا ما يسجع ويكثر من المحسنات البديعية"[2] إن لجوء ابن حمادوش لهذا التقريظ يدل على إعجابه بهذا الفن النثري خاصة وإن كان لأحد كبار علماء الجزائر ألا وهو "ابن عمار" المعروف بتفوقه في الطابع الأدبي بالإضافة إلى أن هذه التقاريظ "تسيطر الروح الإخوانية على الأسلوب وتبرز ثقافة الكاتب الأدبية واللغوية....، وقد كانت في موضوعات فقهية كما كانت في موضوعات أدبية أو غيرها"[3] كما وضف ابن حمادوش الجزائري في رحلته تقاريظ أخرى من بينها تقريظ عبد الرحمن المازوني وهي شهادة منه للمؤلف وجاءت كالتالي "الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين أشهد بأن العالم العلامة تحرير الفهامة، سيدي الحاج عبد الرزاق أصلع كتابه الذي ألفه على مختصر السنوسي على الشيخ البركة المتبرك به القامة التحرير سيدي أحمد الورزيزي....."[4].

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 259

[2] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع السابق، ص 183

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص 182

[4] ينظر: ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 262

نلاحظ بأن هذا التقاريظ كانت تكتب بالعربية الفصحى، وبألفاظ سامية وراقية، تأتي جملها مسجوعة وهي عبارة عن شهادات كانت تقال في حق المؤلف "عبد الرزاق بن حمدوش الجزائري" كما أنها تشهد على أن المؤلف كان يأخذ العلوم من أكبر العلماء أي أن هذه التقاريظ كانت بمثابة الدليل على أن ما يعيد تأليف ابن حمادوش أو يخوض في دراسته يكون بترخيص من عالمه الأصلي.

هناك تقريظ آخر ورد في الرحلة وهو شهادة كتبها أبو القاسم بن يوسف الحسني، وجاء فيها: "وكتب بعده، الحمد لله ما ذكر يمنة هذه الورقة من تجويز التأليف المسمى بالدرر تأليف العالم البركة الشريف المنيف سيدي الحاج عبد الرزاق على يد العالم العلامة البركة أبي العباس سيدي أحمد الورزي، من أوله إلى آخره، صحيح ووقع ذلك بمحضر كاتبه أبي القاسم بن يوسف الحسني وفي التاريخ المذكور بخط العلامة المذكور...."[1]

تدل هذه التقاريظ على أن الرحالة كان قد أجيز من كبار العلماء وأنه كان محبا للعلم والعلوم والمعرفة وأن تفارقه تنوعت بتنوع العلماء الذين أخذ منهم لهذا احتوت رحلته على تقاريظ مختلفة من علماء عدة إلا أبرزها وأعلاها فنية أدبية هو تقريظ بن عمار على حسب قول أبو القاسم سعد الله الذي قال: "وقد احتوت رحلة ابن حمادوش على تقاريظ أخرى له من علماء الجزائر ولكنها لم تبلغ في مستوى الأدبي نثر ابن عمار"[2] إلا أنها تبقى فنا من الفنون النثر الراقي إن لم يكن على مستوى الموضوع فعل الأقل على مستوى الأسلوب.

ت. عقود الزواج:

[1] ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 262

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 184

تعتبر عقود الزواج من بين العقود التي ترتب أحكاما على طرفي العقد وهي من بين أهم العقود التي تحتوي على شروط تنظيمية لما تحميله من قدسية في حياة الإنسان.

ومن خلال دراستنا المعمقة لرحلة ابن حمادوش وجدنا أن الرحالة أورد مجموعة من عقود الزواج المختلفة التي تصلح أن تكون نموذجا لدراسة الحياة الاجتماعية في القرن الثاني عشر هجري في الجزائر "ومنها الذي كتب لبكر والذي كتب لثيب ومنها القصيرة ومنها المطول"،[1] وهذا نموذج لعقد زواج بكر كتبه العالم الأديب محمد ابن عبد المومن، فقد بدأ بالحمدلة والصلاة على النبي وقال: "وبعد هذا القول الذي أشرقت أنواره في رقم هذا الرقيم، وسقي أرضها الأريظة من در عنصر البلاغة من نثر البراعة ما أبان عن فضل العلم الموهوب من الحكيم العليم، فتمت أديمها بسطره الأبهج وعطر أنفاسها بتنميق زهرة الأبلج، كأنه الحلة السيراء، نشرت في غرة الصباح فأضاءت لها الأساطح والربا... فانتذب لهذا الداعي الممثل أمره، الرفيع مكانه وقدره الفقيه النبيه الفاضل النزيه أبو زيد السيد عبد الرحمن"[2] ابن المرحوم المنغمس في رحمته الحي القيوم أبي العباس السيد أحمد الشريف المرتضي فخطب في بيت المروءة لا تنكر.... رقية بيت الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام سليل العلماء الأعلام أبو عبد الله المقري البكر في حجر والدها المذكور على صداق مبارك ميمون قدره بين نقد محضر وحال منظر وكال مؤخر...."[3]

من خلال ما سبق ذكره يهمنا أن نشير إلى أن هذا العقد طويل جدا كما غلب عليه الأسلوب الفقهي بالإضافة إلى تفصيل الصداق والتدقيق في ذكر قيمة فقد أصبحت

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر التقافي (1500- 1830)، ج2، ص 187، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

[2] ينظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ج2، تحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، ص 238- 239، دط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ص 183

* عبد الرحمن المرتضي، تولى الفتوى المالكية في الجزائر عدة مرات

[3] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 239

صيغة هذا العقد نموذجا يحتدي به كتابة العقود الزواج في تلك الفترة، بدليل ما قاله ابن حمادوش حيث قال "وعليه عادة بلادنا وبمثله جرى العمل عندنا"[1]

عقدي زواج الرحالة:

ضمن الرحالة عقدي زواج الأول من ابنة عمه فاطمة والثاني من الزهراء بنت الصغار وكتب هذان العقدان على صيغة العقد الذي كتبه محمد بن عبد المؤمن.

ث. الإجازة:

الإجازة هي عبارة عن شهادة كفاءة وتأهيل ينال بها المجاز لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم المجاز بها "ولكن صيغة بعض الاجازات رغم موضوعها وثبوتها على شكل واحد تقريبا"[2] "كانت أقرب إلى الأسلوب الأدبي أن أصحابها كانوا من الأدباء المهرة فيضيفون عليها طابعهم وذوقهم".[3]

فمن خلال دراستنا لرحلة ابن حمادوش وجدنا أنه ذكر في رحلته العديد من الانجازات التي تحصل عليها خلال مسيرته العلمية حيث ذكر أسماء الشيوخ الذين أجازوه ومواد الدراسة والملاحظ على هذه الإجازات هو أن أسلوبها كان أقرب إلى أسلوب الأدبي ومن بين الإجازات التي تحصل عليها الرحالة إجازة البناتي له والتي يقول فيها "...ثم يقول أجزت الفقيه المذكور (يقصد ابن حمادوش) جميع ما يجوز لي وعني روايته مقروءة ومسموع ومجاز، كل ذلك بشرطه عند أهله، وأذنت له أن يحدث عني بكل ما سمعه مني أو بلغه عني من مؤلفات ومتناولات كشرحنا على كتاب إلا كتفا للإمام الكلاعي المسمى

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ، ص 241

[2] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 183

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 183

بمعاني وفاء بمعاني الإكتفاء المضمن في ستة أسفار كبار وشرحنا على اللامية الزقاقية في الفقه"[1]

وله إجازة أخرى تحصل عليها من الشيخ الورزي وكان ذلك في المغرب ومما ورد فيها قول الشيخ "يقول الفقير إلى الله سبحانه أحمد بن محمد بن عبد الله الورزي دار منشأ الديلمي الحميري نسبا، لضيف الله به وأهله وأسلافه وأتم عليهم نعمته بدخول جنته ورضاه"[2]

"بمحمد صلى الله عليه وسلم أن الشريف الفاضل العلامة سيدنا ومولانا عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري دار المنشأ أجيزه في كل ما صحت لي روايته من مسموع ومجاز فأسعفته.... وكذا أجزته بكل ما صحت لي روايته من جملة ما في فهرست الإمام ابن غازي المكناسي ثم الفاسي"[3]

من خلال دراستنا للرحلة قمنا بالإشارة إلى بعض النماذج عن أجازات التي تحصل عليها الرحالة من العلماء الذين قصدهم وقرأ عليهم وبالتالي أجازوه.

ج. القصص:

احتوت رحلة ابن حمادوش قصصا مختلفة التي نقلها من كتب عديدة يبدو لنا من خلال ذلك أنه يقصد بها الترويج عن القارئ، وهي (القصص) تعكس ذوق وخيار المؤلف ونذكر منها قصة من كتاب (الدار الفائق) وقصة الخيزران، وقصة طفيلي، وقصة مقتل الخلاج، وقصة لاضحاك الراضي، وبعض الأخبار الأخرى وقصة الفيل.

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، مصدر سابق، ص 63

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 37

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 38

وهذا نموذج من القصة التي اختارها الرحالة من كتاب الدر الفائق يقول "ويوم الأربعاء ثاني الشهر المذكور ابتدأت ليلته كتاب الدر الفائق في المواعظ والرقائق (282) محتوى على ثمانين حكاية سرد، ومن أغرب ما فيه من الحكايات القصار حكاية ولد التاجر مع بنت التاجر آخر كانت تهواه وشغفت به، ففي ذات يوم فقدته وكان لا يفارقها فسألت[1] عنه فقيل أنه خرج سكرانا وتعدى على شخص فمسكه الوالي"[2]

خلاصة هذه القصة أن هذه البنت كانت تفتن كل من يراها في حين خاب أملها في أن يطلق الولي سراحه لجأت إلى القاضي ثم إلى الوزير فلم يلبي أحد طلبها، وكان طلبهما مماثلا (الوزير، القاضي) ولهذا السبب رسمت خطة للإيقاع بهم حين صدت جميع الأبواب في وجهها "فذهبت إلى النجار فأمرته أن يصنع لها خزانة من صفتها أربع طبقات، وكل طبقة بابها وحده، فأخذ القياس وقالت له كم ثمنها؟ قال لها أو منك يؤخذ الثمن؟ إنما مرادي منك الوصال"،[3] فلما رأت الجد قالت له: إذا اجعلها من خمس طبقات بأبوابها فلما انتهى النجار أحضرتها إلى بيتها وبمكرها وحيلتها أدخلت كل من؟ الوالي، والقاضي، المحتسب، الوزير، النجار) داخل الخزانة فعند إدخالهم جميعا "ذهبت إلى صاحب الوالي فأمر السجان فأطلق لها صاحبها وأخبرته القصة فأتوا بجمالين وحملوا جميع ما في الدار وثياب أولئك الحمقى وذهبوا إلى البحر فركبوا مركبا ولم يعلم أحد أين توجهوا"[4]

---

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، مصدر سابق، ص 100

* (282) يشرح ابن حمادوش في هذه صفحة لا شك أنه الروض الفائق في المواعظ والرقائق، لشعيب بن سعد بن عبد الكافي المشهور بالحريفش المتوفي سنة 801 هـ، وفيه أجزاء.

[2] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 100

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 101

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص 102

إن قصة "الولد والبنت" التي أشرنا إليها توفرت على جميع شروط القصة المعروفة من الشخصيات الولد، البنت، الوالي، القاضي، المحتسب، الوزير، النجار، وغيرهم، كما تنوعت فيها الأحداث وتشابكة، كما أنها توفرة على عنصر الزمان والمكان إلى جانب العقدة (إلقاء القبض على الولد) والتي تأزمت حين طمع على الذين قصدتهم البنت للإفراج عن الولد، ثم بعد ذلك الحل والانفراج حين أوقعت بهم وخلصت صاحبها من السجن وهربت معه إلى مكان مجهول لا يعرفهما أحد فيه.

2. أغراض الشعر:

ذكر الرحالة ابن حمادوش أغراض شعره في رحلته حيث قال: "وانما بنيت ديواني على الغزل والنسيب والمراثي ومدح المصطفى صلى الله عليه وسلم"[1] إلا أننا صادفنا قصائدا تناول أغراضا أخرى أيضا غير التي ذكرها سابقا ما عدا الرثاء فقد نظم قصائد عديدة ذات موضوعات مختلفة مثل "المدح والحنين إلى الأهل والوطن والفخر والشكوى من كساد التجارة ومعاكسة الزمان، والاستجازة من علماء المغرب، ونحو ذلك".[2]

يبدو لنا أن ابن حمادوش أشعار المفقودة نظمها في الأغراض التي أشار إليها، واستنادا إلى كل هذا سنحاول ذكر القصائد والقطع الشعرية التي عثرنا عليها في الرحلة وسنبين الأغراض التي قبلت فيها.

أ. المدح:

تعتبر غرض المدح من أهم الأعراض الشعرية التي نظمت فيها قصائد كثيرة والمدح هو ذكر المحاسن والثناء بذكر الجميل من الصفات الحسنة.

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 118- 117

[2] ينظر: أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، ص 41، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005

من خلال دراستنا لرحلة ابن حمادوش عثرنا على أن الرحالة نظم مجموعة من القصائد في هذا الغرض فقد نظم قصيدتين في السلطان مولاي عبد الله، إحداهما كانت أثناء ولايته عام 1145 ويشير في الرحلة أنه لم يقدمها له، بدليل قوله" وما تقدم من القصيدة التي هنيت فيها مولاي عبد الله لم أدفعها إليه، وإنما حملني الأدب عليها ووضعتها في رحلتي"،[1] وتبلغ هذه القصيدة خمسة وثلاثون بيتا ومطلعها:

قطعت بحارا مؤهلات ودونها قفارا لا تأويها الوحوش مع الطير

وجبت بلاد الترك والعربي والعجم على قدمي وطورا وطورا على الحمر[2]

ويتجلى لنا غرض المدح هنا في هذه الأبيات والتي يقول فيها:

أمولاي عبد الله طبت أبوة وأما، فهل مثل الخليفة في العصر

أيا ابن الليوت العاديات على العدا ويا ابن الكرام الراحمين لذي الفقر

أبوك النوى للفاسقين وإنه لغيت على أرض المساكين بالخير

وأنت لعمر الله سيف مهند وفي الجود بحر إلا أنه للأجر

رأيتك بالقنطار ضيفت قاضينا وقنطارك الموزون يثقل بالظهر

وأصحابك الغر الكرام فإنهم عيون كحلقة النجوم على البدر

عليكم سلام الله يا مجمع الرضى وألف تحيات تدوم مدا الدهر[3]

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 116

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 116

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 117

كما ذكر في قصيدة أخرى له في نفس الغرض يمدح فيها نفس السلطان ويهنيه فيها.

حين هزم وقتل الثائر أحمد الريفي، غير أنه لم يقدمها أيضا، بدليل قوله: "وقد هيأت له قصيدة هنيته فيها حين قمر الباشا ورجع، فلما رأيت غلظ حاجبه مسكتها عندي"[1] ومعنى قوله أنه رفض دخوله على السلطان تبلغ هذه القصيدة ثلاثة عشر بيتا ومما جاء فيها قوله:

أمولاي عبد الله بشرك الهنا بكل الذي تبغي من الفتح والنصر

وساقت رياح السعد جارية الهنا لساحل بحرك المفيض على اليسر

كأنك بحر في العطاء ومن يكن كمثلك حق أن ينال من الظفر

ودلت لك الأعداء حتى كأنها أرانب لا تعدو خطاها عن الجحر

لقد شهدت أولوا المغيرات أنه لتنصرك الأنطاف في البطن والظهر

وإلا لتخرجها من محلها وتثقلها ولا يشكون في الأمر

كأنك سيف سل عن معشر الردى وغيث يزوي الطائعين أولى الفقر[2]

يجدر بنا الإشارة هنا إلى أن صاحب الرحلة لم يمدح سلطانا آخر، ولم يقترب إلى ذوي السلطان والجاه بدافع الرغبة في الحصول على المال والجاه وقد صرح بنفسه على ذلك حين قال "فكان من فضل الله علي أن لم أجعل علمي سلما للدنيا، ولم أنل به شيئا، ولم

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحله ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 97

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 97- 98

أمدح أحدا للطمع، ولا مدحت سلطانا قط غير هاتين القصيدتين، حملني للأدب ولم اكتلف لوصولهما فخلدتهما في ديوان الأدب، ولم يراهما"[1]

وله كذلك قصيدة أخرى بنفس الغرض (المدح) قالها في شيخه أحمد بن المبارك، وتبلغ هذه القصيدة ثلاث عشر بيتا، جاء فيها قوله:

أيا شيخنا شيخنا البرية كلها أسيد أحمد المبارك في الدهري

علوت على أعلا ذرى المجد رفعة فكنت في أوج العز كالكوكب الذري

وكنت نسيج وحدك اليوم في العدى ومن أين للإسلام مثلك كالنيري

ومن مثلك في الكون يقصد بابه ومن أين يأتينا وجوده في العصري

لقد عم بحر الجهل حتى رأيته محيطا بآفاق الأنام على البري

وقد صار كل ديك يصرخ وحده ودعوته تحكي مسيلمة الشري[2]

نستخلص هنا أن الرحالة ابن حمادوش مدح شيخه أحمد بن المبارك مدحا يليق بشأنه وكذا تطرق إلى وصف حالة العلوم في عصره.

ب. الحنين إلى الأهل والوطن:

لقد كانت الغربة عن الأهل والوطن من بين الدوافع التي أدت بابن حمادوش إلى أن ينضم في هذا الغرض لأن الحنين إلى الوطن أو الأوطان بصفة عامة هي حالة شعورية تنتاب الإنسان الذي يبتعد عن وطنه ويسافر مغتربا أو مهاجرا ولا يتوقف الأمر على

[1] ينظر: المصدر نفسه، ص 117

[2] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 83

الفترة التي يعيشها الإنسان بعيدا عن وطنه، ولكن ربما تتغير شده الحنين إلى الأوطان حسب مدة الاغتراب والابتعاد عن أهله والوطن من جهة وكذا حسب مدى ارتباطه بوطنه وأهله من جهة أخرى، وكذا الحالة التي ترك لأجلها الوطن وهذا ما لامسناه في قصيدة لابن حمادوش قالها حين شهد عيد الأضحى في المغرب والتي عبر قيمتها عن حزنه وغربته وبقائه وحيدا ومما جاء فيها قوله:

لقد كنت قبل اليوم أصبر صابر وها أنا في هذا الأوان ذليل

أنوح على بعد الديار صبابة نواحي الثكالى تحسبوني جميل

بثينة عندي واني جارها وفارقتها، كرها، فأني عليل

وقد أدرك العيد الخيل دياره على شطط فما إليه سبيل

فلو كان طير يطير بغيتي إلى دار زهرا بالكتاب يديل

لطوقته طوق الأمان فيخبر بأني على بعد الديار نحيل

ولكن لم تدر الطيور بأنني بكيت دما، قهرا، ولي عويل[1]

نستنتج زيادة على ما ذكرناه سابقا أن الرحلة تذكر أهله وأخذه شوقه وحنينه إلى الديار والأوطان بحضوره لعيد الأضحى في مكان غير بطنه.

وله قصيدة أخرى في نفس الموضوع حيث تحطمت السفينة التي كانت ستنقله ومن معه إلى الجزائر يقول فيها:

أيا أم عبد صبري تصبري وأيقني أني على أمر جبري

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 108

لكن ما قدر لا يكون سواه فأرضني به يهون

وبي كألف ما بك من الأسى وليس لي بدفعه من مؤتسي

جرت لنا الأقدار بالتي نرى فاصبري صبرا كصبري في الورى

كرها، وما أنا لديكم بالفخور لكن للدنيا يقودني الغرور

وحبها، فيما علمتم كالفجور لأجلها ركب الأحمق البحور[1]

الواضح من خلال هذه القصيدة أن نزعة الحنين كانت تدور في نفس الشاعر حين يتذكر أبناءه الذين تركهم باحثا عن الرزق وغيره كما ظهر عليه الحزن حين انقطعت أخبارهم عنه حيث يقول في ذلك:

تركت أفراخا كأفراخ القطا في أفحوص فقل وما له تمطأ

زغبا صغارا ما عليهم ريش وأمهم في مهمة وحيش

فمن لهم ومن لهم ومن لهم سوى إله خلق الخلق لهم

بكيت قمرا عنكم يا معشرا فرقتكم وما وجدت نفرا

ليس لنا اتصال في الأنام ولا لنا اتصال في المنام

ولم أدر أقصركم رحيب أم حالكم كحالنا نجيب[2]

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 109- 110

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 110

ما يمكن أن نستخلصه مما سبق ذكره أن الرحالة أثناء ترحاله تتغير عاداته ويكتسب أخلاقا طيبة تغرسها الرحلة في ذاته مثل الصبر والتضحية لما يلاقيه من متاعب بدنية كانت أو نفسية وفي هذا الصدد نجد قوله:

لكنه يكون بعد العسر يسر ويتبع العسر بألف ألف يسر

وأيقني أن مع الصبر الظفر وإن ذا مر القضاء والقدر

وأنني رهن الأسى في بيتي لا أنسى لا معين لي في قوتي

لكنني، وقت، قد استرحت من العلاج فيما قد رأيت

لحمي قوتي ودمائي شربي وفكرتي فيكم ورغبتي ربي

فهذا حالي في المساء والصباح وهذا دأبي في الغدو والرواح

فإن أنا جزعت أو فرقت فأيقنوني مرا قد كرعت[1]

من خلال ما سبق ذكره نستطيع القول أن الرحالة ابن حمادوش قد أفصح من خلال هذه القصائد عن كل ما يختلج صدره من شوق وحنين ومشاعر إلى الأهل والأحبة والوطن، كما لاحظنا أن حالته النفسية كانت متدهورة حيث صعب عليه التكيف والملائمة إذ أنه كان يود لو يسمع أخبار أهله وأحبائه حتى ولو في المنام.

ت. الفخر والهجاء:

أورد الرحالة قصيدة يفتخر فيها على الشاعر المفتي ابن علي ويهجره فيها أيضا وسبب ذلك أن ابن حمادوش كان ذات مرة في دار صديقه وشيخه محمد ابن ميمون فدخل

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 110

عليهما المفتي ابن علي، فلم يقم له ابن حمادوش احتراما، فغضب وخرج وهذه هي روايته عن ذلك، "يقول.... ناداني إلى داره، كعادته شيخنا سيد محمد ابن ميمون، بعد العصر، جراه الله خيرا، إذ قد دخل علينا الراحل في ثوبه الزاهي بكبره وعجبه، الذي يعد الإشراف أرضا وأن نعله يطأ صفحات خدودهم فرضا وأنه بلغ الغاية القصوى.... ابن علي (73) المستحق المقطت، فغضب إذ لم انتصب متمثلا بين يديه وشرع ينسب إلى مما اتصف به"[1]

لقد نظم ابن حمادوش كذلك قصيدة تبلغ أربع عشرة بيتا افتخر فيها بنسبه إلى بني هاشم وهجا فيها ابن علي على أنه من الكرافلة المولودين من أب تركي وأم جزائرية: وهذا بغض ما قاله:

خرجت ذليلا لا أعود لمثلها وهل يجمع السيفان، ويحك في غمد (731)

فإني من اللائين فوق الترى ترى وأنفسنا في العرش تابعة المجد

بين جدنا في العاليات قصورنا فلا ترتضي الأدنى كبارا وفي العهد

فلا يدرك المجد المؤثل غيرنا وإن أدرك الدنيا وحازها في الأيد[2]

فكل مقام في ذرى المجد يرتقى لنا أوجه في السميين مع الرفد

بنو هاشم خير القبائل منهم إمام الهدى حبذ الحسينيين المهد.[3]

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 256

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 256

* 731 يراجع المصدر نفسه، هامش ص 156

* 730: يراجع المرجع، نفسه هامش ص 256

[3] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر نفسه، ص 256

الظاهر أن ابن حمادوش هجا ابن علي، كما سبق وذكرنا كون غير عربي وأنه يحب الدنيا ومتكبر ومتسلط، إلا أن هذا يعتبر رأيه الخاص "وهيهات أن يصل شعر ابن حماودوش إلى شعر ابن علي أو لكنها الطبيعة الإنسانية القائمة على الحسد والمنافسة بين المتعاصرين والمعروف أن ابن ميمون كان صديق لاثنين.... وكان أيضا بين ابن عمار وابن علي علاقات ودية".[1]

يبدو لنا من خلال ما سبق ذكره أن ابن حمادوش لم يحظى بمناصب راقية وحيث كان يفتخر بنفسه وشرفه على ابن علي لإخفاء النقص الذي يعانيه (الفقر) على عكس ابن علي وهذا ما يفسر حقيقة الخلاف بينهما.

عثرنا كذلك في الرحلة على قطعة شعرية أخرى، هجا فيها أولاد مختار بالمغرب على بخلهم" وقد عبر فيها على الخوف الذي ساوره هو ورفقائه لأن ليلتهم كانت محفوفة بالخطر من أولئك القوم"[2]

وتبلغ هذه القطعة تسعة عشرة بيتا حيث قال فيها:

وليلة المختار يبيت بها هم مدى الدهر لا يرجى يحور عن الهم

وأل قريم كلهم مجمع الردى يسيئون بالأضياف في القول والحكم.[3]

ث. الرثاء:

إن الرثاء هو تعداد خصال الهيت والتضجيع عليه والتأسي بما كان يتصف به من صفات حميدة كالكرم والجود والشجاعة وغيرها من الصفات الحسنة "وإذا كانت الحياة

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، المصدر نفسه، ص 276

[2] أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، المصدر نفسه، ص 41

[3] ينظر: أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر نفسه، ص 72

رابطة قوية بين الشعراء، فإن الموت أيضا كان يقوي تلك الروابط، بل يكشف عن أصالتها أو زيفها فكما تبادل الشعراء الاخوانيات أثناء الحياة جادوا بالشعر عند وقوع مصائب بأحد العلماء أو الشيوخ، وشعر الرثاء على خلاف المدح قليل".[1]

ولابن حمادوش قصيدة في رثاء شيخه أحمد بن المبارك تبلغ ثلاثين بيتا، ومما جاء فيها قوله:

أفلت يا شمس الغرب في حجب الثرى وأبقيت فاسا في الظلام وفي الغم

فحيرت رصادا وعطلت آلة وفرحت شيطانا قهرته بالرجم

أيا شيخنا شيخ الجماعة أحمد أنجال مبارك وصلت ذو الرحم.

بذلت علوما كنت فيها مبرزا فلست بمناع العفات من الفهم[2]

ويظهر رثائه لشيخه واضحا في هذه الأبيات يقول: روتيتك محزونا وكل الورى مثلي وأنى لنا شخصا كمثلك في الحلم.

يحق لنا أن نبكي العمر بالدماء على العالم التحرير إذ ثوى في الرم[3]

بعد دراستنا المعمقة لرحلة وجدنا أن هذه القصيدة هي الوحيدة له في عرضنا الرثاء، وهذا يثبت ما أشرنا إليه سابقا بأن هذا الغرض الشعري قليل جدا إذ ما قورنا بالأغراض الأخرى التي وجدناها في الرحلة المدح والحنين إلى الأهل والوطن.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، المصدر نفسه، ص 278

[2] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر نفسه، ص 87

[3] أبو القاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش الجزائري، المصدر السابق، ص 88

واستنادا على المعلومات نستنتج أن الرحلة ابن حمادوش البيت المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال قامت على تشكيل فني مرموق فقد ألم الرحالة بكل الجوانب الفنية، أورد في جانبها النثري كل من المقامات، الرسائل، التقاريظ، عقود الزواج، القصص الاجازات، وفي جانبها الشعري كل من المدح، الحنين إلى الأهل والوطن، الفخر والهجاء، الرثاء، فرغم موضوعاتها الغير المترابطة إلا أنها وبذلك تعطينا صورة واضحة على ابن حمادوش في تفكيره وذوقه ورحلته على وجه الخصوص.

1. لغة السرد في الرحلة:

تمهيد:

الرحلة هي فن من الفنون الأدبية لابد لها من لغة وأسلوب يشكلان متنها "وتأخذ الرحلة حيزا مهما مهما في الأدب إذا ما رمنا في ذلك تجنيس هذا النص كمقولة أدبية، وتعدد المفاهيم التعريفية للنص الرحيلي باعتباره فن من فنون الكتابة النثرية"[1] إن هذا الفن النثري لابد أن يعطيه صاحبه القيمة الأدبية التي يستحقها ويستحسنها القارئ وذلك من خلال لغة سردية راقية وأسلوب جمالي يكسبها قيمتها الفنية الأدبية "وفي ذلك يكون الرحالة الكاتب قائما بفعل الكتابة الأدبية يسجل مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق والجمال الأسلوب.[2]

إن ما يمكن قوله هو أن النص الرحلي يخضع كغيره من الفنون النثرية لمقومات الكتابة الأدبية من اللغة وأسلوب حتى يكسب تلك القيمة الفنية الأدبية التي تثبت براعة الرحالة في الكتابة وتدل على أدبية ككاتب في نفس الوقت" هذا ما يجسد لنا تلك الصورة الفنية

[1] أحمد صانع، الرحلة بين الأدبية والإثنوغرافية المقاربة في نصوص الرحلية، مجلة دراسة المعاصرة، مج 05، العدد 02، بوزريعة، الجزائر، 2021، ص 163

[2] المرجع نفسه، ص 163

التي تمنح النص الرحلي قيمته وقوته فهي آليته التي لا يستقيم إلا بها"،[1] ولمعرفة اللغة السردية الموظفة في متن الرحلة التي هي محل دراستنا كان لابد من الوقوف على دراسة أسلوبها هذا الأخير الذي يعرف الكاتب ويميز بينه وبين غيره.

أ. طريقة سرد الأحداث (طريقة الحكي)

عمد الرحالة إلى سرد الأحداث التي عاشها أو شاهدها في رحلته فدون تفاصيلها، ونقل الأحداث الواقع الذي صادفه بأسلوب لا يخلو من التأثر بما عاشه وشاهده وما سمعه وقراءة في مصنفات التي اعتمد عليها في رحلاته، وقد وظف الرحالة اللغة السردية ليروي لنا أحداث الرحلة فكان يذكر زمان ومكان الانطلاق ثم العودة إلى ما غير ذلك ويتجسد هذا مثلا في قوله "وفي هذه الساعة كنا على ظهر البحر، قريبا من غرناطة وكان عاشر خروجنا من الجزائر، والاثنين حادي عشرتا (5) ويوم الأربعاء سادس عشر فبراير ألقينا المراسي بحبل طارق ونحن على وجل.... وبقينا هناك بقية يومنا الخميس"[2] كان الرحال يسرد كل ما يصادفه سواء أثار إعجابه أو استاء منه، كما كان يسرد ملاقته بالشيوخ والعلماء كملاقاته بالشيخ بن أحمد المبارك ويقول في هذا اللقاء المهم "وفي هذا اليوم لقيت سيدي أحمد بن المبارك، لقيت رجلا عظيما عند كافة أهل البلد، خفيف النفس حلو المنطق، خفيف الجسم، حسن الأخلاق..... فسألته القراءة ففرح بذلك فرحا شديدا"[3]

ومن خلال هذا النص يظهر بأن صاحب الرحلة اعتمد على السرد والوصف معا فكان يشكل بالسرد الحركة الزمنية في الحكي ويجعله من الوصف أداة يشكل بها الحركة المكانية أو يرسم بها صورة للشخص الذي يتحدث عنه كما كان صاحب الرحلة شديد

[1] ينظر: أحمد صانع، المرجع السابق، ص 164

[2] ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 30

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 83

الإحساس بالبيئة يتفاعل معها بشكل رائع فهو كثيرا ما كان ينقل إعجابه الشديد بالمروج التي مر بها أثناء تنقلاته في المغرب فيقول مثلا "وبثنا في أول المرج الطويل، الذي به طير الماء من غروبط وغيره كثيرا لا قليل ومنه بتنا سيدي سعيد ابن علي، أكرمنا فيه السيد وعبيد الاسماعيلي (130)، وما قطعنا وادي سب الذي كان يجوزه بالقارب حسب كأنه نيل مصر وقطعة من البحر"،[1] لقد لاحظ ابن حمادوش كثرة الطيور في هذا المرج من البط وغر وغيره، كما لاحظ أيضا أن وادي سبب يقطعه الناس بالقوارب فقط لعمق مائه، من طريقة السرد أو الوصف التي اعتمدها الرحالة تثبت بأنه لم يكن رحالة وعالما وطبيبا وفقط وإنما كان أديبا ساهم في بناء النص رحلي أدبي بشكل خطابة قيمة أدبية فنية يستحسنها المتلقي" فالخطاب هو مكان الذي يتكون فيه فاعله ومن خلال هذا الخطاب فإن الفاعل يبني عالمه كشيء ويبني ذاته أيضا..... الفاعل الذي يعتبر منتجا للخطاب وناتجا في الآن ذاته"[2]، وفي هذه الرحلة كان ابن حمادوش ناتجا لخطاب الرحلة ولغتها كونه كاتب الرحلة وساردا أحداثها، يعمل على نقل الأحداث والأوصاف والتعاليق بواسطة اللغة.

ب. الوصف:

الرحلة الموسومة بلسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال لم تخلو من الوصف، بل شكل جزءا مهما من مثنها، حيث يعمد ابن حمادوش إلى وصف أماكن ووصف ملاقاته مع الشيوخ، وصف عادات أهل الجزائر وأهل المغرب حيث كان يدقق في الوصف ويعمل على تقديم كل التوضيحات والتفاصيل للمتلقي "فجماليات الكتابة

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 72

[2] سعيد حسن البحيري، علم لغة نص المفاهيم والاتجاهات، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر، 1997، ص 17

الأدبية مرهونة بطرفي عملية التواصل.... التواصل المتكافئ بين الإرسال والتلقي"[1] معنى هذا أن الكاتب لابد له من تفنن في كتاباته أي نص أدبي نثري كان أو شعري حتى ينال استحسان المتلقي فاللغة الموظفة هي الوحيدة التي تربط بينهما، وتوظيف الوصف في هذه الرحلة جعل من نصها الرحلي أكثر دقة ينقل للمتلقي أجواء رحلة ابن حمادوش، ففي قوله "خرجت من الفاس... فظللنا سائرين إلى آخر النهار فنزلنا في دوار عرب بين وادين يقال له بوشابل ورفعنا من هناك، سرنا النهار كله إلى العشية بل قبل الظهر أو قريبا منه، نزلنا تحت بني وریاكل تحتها وهي دشور بتنا على عين مائها[2] في هذا النص يصف الرحالة المكان الذي نزلوا به وهو مكان في مدينة فاس المغربية وقد كان ابن حمادوش يصف كل مكان ينزل به أو يمر عليه في طريقة كوصفه لإحدى القرى التي مر بها أثناء تنقله من تطوان متوجها إلى مكناس حيث يقول" تعدينا على بلاد يقال لها القصر، فليس يسكنها حر، مهدمة البناء نائية الماء ومع أنها كبيرة المنشأة قليلة الممشا، عددت بها ثلاث عشر صومعة سوداءات[3] لم يكتفي الرحالة بوصف الأماكن التي حط بها أوامر بها وانما كان يصف أيضا مجالس العلماء التي كان يحل بها فيقول في وصفه مجلس الحكيم "عبد الوهاب أدراق" "ثم أني جالس معه في مجلس حسن كأنه له مجلسا من مجالس الملوك، بيت في الرياض من نواور شتى ونارنج وعنبر ومياه، والناس يقصدونه هناك للتداوي"[4]

وبما أن الرحلة هي فن يرتبط ارتباطا وثيقا بالواقع، فكان لابد من توظيف الوصف في هذه الرحلة هذا ما جعل ابن حمادوش يصف كل ما أثار انتباهه في هذه الرحلة كوصف

[1] صليحة بردي، فعل الكتابة في تفكير عبد المالك مرتاض النقدي نحو رؤية حداثية للتراث البلاغي، مخبر اللغة الوظيفية، جامعة الشلف، الجزائر، ص 11

[2] ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 78

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 72

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص 82

عادات وتقاليد أهل المغرب منها وصف احتفال أهل التطوان لعيد الأضحى "وفي يوم السبت صنع عيد الأضحى بغته وكان مطر غزير وسحاب ليله ونهاره، إلى الضحاء أتت بينة من طنجة فصنع العيد وذهبنا إلى المصلى فخرج قائدهم في جماعته وبين يديه حربة عالية طويلة جدا، وأمامه نحو المائتي مسخر حاملة المكاحل كلها وهم يرمون ومعه نحو الخمسة أو نحوها فصلينا والمطر نازل علينا"[1]

إن اعتماد الرحالة على وصف العادات والتقاليد، يرسم من خلاله صورة للأوضاع الاجتماعية وحتى ثقافة سكان البلد الذي زاره، ومواصفات الناس في كلامهم ولباسهم ومشروباتهم، كما وصف ابن حمادوش عادت الجزائرية وأهل فاس في الاحتفال بمولد النبوي الشريف قائلا "وفي ذهابي لقيت الطبالين والعياطين وآلات الطرب كلها في السوق، ذاهبين بأربعة قباب من الشمع كل واحدة من لون واحدة من لون أحدهما أخضر وأخرى بيضاء وأخرى حمراء والرابعة نسيت لونها أحق مما يجعل في الجزائر عندنا[2] بالإضافة إلى وصف الوضع الاجتماعي ورسم صورة للمجتمع الجزائري والمغربي في تلك الفترة بل تعدى في رحلته إلى أكثر من ذلك من خلال وصفه الطبيعة وجغرافية البلد الذي ارتحل إليه ما يساهم في رسم صورة واقعية لبيئته ذلك البلد لذلك نجد ابن حمادوش يقدم لنا وصفا في غاية الدقة للحيوانات التي شاهدها في المغرب فيقول مثلا في وصفه لطائر الغار "والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء"[3] ويقول في ذات السياق "ومن الغريب ما رأيت أن في القصر إلى مشرع الرملة أكثر بقرها بيض فإن لم تكن كلها بيضاء ففيها شيات ما رأيت مثل هذا المحل في شدة بياض البقر"[4] هذه البعض النماذج عن الوصف الوارد في متن الرحلة فالمؤلف كان لا يترك شيئا شاهده إلا ووصفه

[1] ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 107

[2] المصدر نفسه، ص 84

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 73

[4] ينظر: المصدر نفسه، ص 74

وعلق عليه والأمثلة خير دليل على ذلك، هذا ما جعل الرحلة تكون سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة التي عاشها الرحالة فهذا الأخير ضمن رحلته الكثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية.

ج. الحوار:

الحوار هو وسيلة للتواصل بين الأشخاص ويكون الحوار بين شخصين أو أكثر هذا ما يعرف بالحوار الخارجي، وهناك حوار يكون بين الإنسان وذاته وهذا ما يسمى بالحوار الداخلي، وبما أن الرحلة هي الانتقال والسفر من مكان لآخر فلابد للرحالة أن يصادف أشخاصا جدد سواء كانوا أناسا عاديين من سكان ذلك البلد أو علماء وفقهاء وحكماء يريد الرحالة الانتفاع بعلمهم وهذا لا يحدث إلا بالتواصل معهم وذلك عن طريق الكلام أي الحوار، وفي هذه الرحلة كان ابن حمادوش كثير الالتقاء مع العلماء الذين أجازوه أو قدموا منافعا استفاد منها في مجال العلم والمعرفة لهذا نجد مثن رحلته لا يخلو من الحوار ويتجسد ذلك في قوله "ثم تكلمت مع الشيخ الفاضل للبناني فقال لي: مالك ولذلك المعتزلي.... ثم قال لي: [1] لئن كان دليله من الكتاب فدليلنا على أفضلية النبي من الكتاب وهو قوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا)[2] جاء هذا الحوار نتيجة معارضة ابن حمادوش لرأي شيخه أحمد الوزري حول مسألة تفضيل الملك على الإنسان ثم كيف كان يمهد لسير الحوادث تمهيدا طبيعيا قائما على قدرة صاحب الرحلة على مناقشة وابداء رأيه بشكل صريح.

[1] ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر السابق، ص 66

[2] سورة البقرة، الآيات 31- 32- 33

كما يقول ابن حمادوش أيضا عن السبب الذي جعل الأعراب لا يتعرضون للقافلة التي كان فيها حين مرت بتطوان وصادف ذلك وقوع القتال فيها بين الثائر "أحمد الريفي" والسلطان "عبد الله" يقول "فهذا سبب العرب حتى طمعت فينا قالوا وإن الوقت لا سلطان له فمن فعل شيئا فاز به فلما وجدوني رزاء صعبا أيقنوا أن أمري لا يعود عليهم بخير وكبارهم نهت أصاغيرهم فقالوا لهم: إن اكتملوها نابكم مثقال وما من أحد وله أقفزة مبذرة في الأرض وهذا رجل شريف لا طاقة لكم به وقد أروني الله في أعينهم كبيرا والحمد لله"،[1] لا ندري حقا من الذي جعل الأعراب لا تتعرض للمؤلف غير أننا نلاحظ من خلال الحوار الذي جرى بين الأعراب أنه كرهم الشرف واستخدمه كوسيلة لإقناعهم حتى لا يتعرضوا للقافلة التي كان فيها وعلى ما يبدوا من هذا الحوافز فقد بالغ المؤلف في بيان حصانته وقوته ويقول أيضا عن جنازة شيخه أحمد بن المبارك" كان من أولياء الله الصالحين وحضر جنازته خلق كثير....، تقرب من ألفي رجل وخمسين إمرأة وبعض وضعه في قبره كسرت العامة....، فمنهم المقل ومنهم المكثر وسمعنا رجلا بيده قطعة قيل له فيها فقال: ما لحقتها حتى نلت ما نال المفكرون على ظهر فوجدت الناس عليه وقال لي عمه: بتنا على قبره ليلة ليلة الاثنين الموالي".[2]

هذا الحوار يدل على أن أحمد بن مبارك كان ذا مكانة عالية جعلته يخطى باهتمام كبير حتى بعد موته غير أن الذي سيوقفنا في هذا الحوار هو ذلك الذي جرى بين عم الشيخ والرجل الذي رآه في المنام "قال فنمت فإذا برجل جلس معي وقال لي لن ترى الشيخ الليلة فإن الأرواح الناس يذهبون إلى النبي (ويرجعون من حينهم) وروحه بقية عنده إلى الآن وأن الصالحين مشتبكون في أمره متحيرون لأن عادتهم إذا مات ولي أخذوا من سائر الناس وجعلوه موضعه واذا مات ولي عالم تحيروا في من يأتون بموضعه نسأل الله أن

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 77

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 86

يوفقنا لصالح الأعمال والأقوال"[1] إن أراد هذا الحوار يدل على إيمان مؤلف الرحلة بهذه القصة وهو يصدق عم الشيخ أحمد بن المبارك أنه حقا رأى هذا المنام ولم يكن من صنع الخيال، إلا أن المتلقي وقارئ الرحلة قد يتبادر إلى ذهنه أن الرحالة ابن حمادوش كان يأتي بالخيال حتى يضفي على رحلته نوعا من العجائبية وهذا يرتبط بالصورة الفنية المتجسدة في الرحلة" وترتبط هذه الدلالة بالوظيفة الصورة الفنية سواء أكانت حقيقية أم مجازية أو كليهما"[2] لقد جاء الحوار في الرحلة بمظهره المشهدي لأنه يسعى إلى مقابلة بين الشخصيات في إطار علاقات الاختلاف والاختلاف التي تربط بينهم، غير أن هذا الحوار لم يكتسح مساحة كبيرة من السرد فقد تمثل في بعض المواقف القليلة أطولها مع جمع بين المؤلف والشبح الورزيري حين ناقشه حول مسألة أفضلية الملائكة أو الرسل لقد ساهم توظيف أو إيراد الحوار في هذه الرحلة في تصميم المشاهد حيث كان الرحالة يعمل إلى إيراد الحوارات بتفاصيلها حتى ربما يعطى مصداقية للمشاهد الرحلية.

3. الزمان والمكان في الرحلة:

أ. الزمان:

تقوم الرحلة أساسا على بنية السفر والانتقال مع تدوين أحداث التي جرت الزمن الذي استغرقته، إن الشخصية في الرحلة تكون متنقلة ولا تسقر في مكان واحد ويكون انتقالها وفق زمن محدد "فالوجود هو الزمن الذي يغامرنا ليلا ونهارا ومقاما وتطعانا وجابوا شيوخه دون أن يغادرنا لحظة من اللحظات"[3]

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر السابق، ص 87

[2] عبد الحميد قاوي، مفهوم الصورة الفنية في النقل الأدبي الحديث، جامعة الأغواط، الجزائر، ص 33

[3] عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، دط، المجلس الوطني الثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1998، ص 171

وعندما نقول الزمن في الرحلة أي أن التاريخ الذي كان يعتمده الرحالة في تدوين رحلته وفي هذه الرحلة نجد ابن حمادوش يؤرخ بالتاريخ الهجري الذي يسميه العربي والميلادي أيضا (الشرقي أو الفلاحي) وفي بعض الأحيان كان ينسب تاريخ الحدث أو زمنه إلى تاريخ ميلاده وفي اعتماده التاريخ العربي يقول عن ذهابه إلى مكناس انطلاقا من تطوان "فدخلت مكناس عند الزوال من يوم الأحد السادس والعشرين صفر من عام 1156 الموافق عاشر أبريل من سنة 1743 مسيحية"[1] ويقول أيضا عن خروجه من مكناس متوجها إلى فاس "وصباح الخميس خرجنا ضحى من مكناس في قافلة عظيمة.... فسرنا السير الحثيث حتى دخلنا فاس بعد صلاة المغرب، ونزلنا في فندق النجارين فأصبحنا يوم الجمعة بها تاسع ربيع الأول من عام 1156 الموافق لثاني وعشرين أبريل من سنه 1743 مسيحية"[2] ويقصد بالمسيحية التاريخ الميلادي وهنا يبين الرحالة أنه قد قطع المسافة بين تطوان ومكناس في ثمانية أيام بدليل قوله "فخرجنا من تطوان إلى السفر يوم السبت ثامن عشر صفر فبتنا بوادي بوصفيحة"[3] إن هذا التاريخ يثبت واقعية الرحلة.

لقد ركز ابن حمادوش في رحلته على التواريخ لأنه يمثل سير الزمن التي لطالما سردها ووصفها وفق زمن معين فالتاريخ بالنسبة للرحالة يمثل منهجه الخاص الذي يبنى عليه رحلته الطويلة لقد كان ابن حمادوش ينسى أو لا يذكر التاريخ بالضبط فيذكر الأحداث كما وقعت ولكن ليس في وقتها المحدد ويتجسد ذلك في قوله "وخرجت من فاس اكثريت بهيمتين من الأنعال من بسلطان ذهبا لكل واحدة إلى تطوان فضلنا سائرين إلى آخر النهار، نزلنا في دوار العرب بين ودين يقال بوشابل.... سرنا النهار كله إلى العشية

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 77

[2] ينظر: مصدر نفسه، ص 80

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 71

بل قبل الظهر أو قريب منه"[1] فهنا نلاحظ بأن الرحالة لم يتقيد بالتاريخ أي لم يحدد زمن خروجهم من فاس لا بالتاريخ الهجري ولا بالمسيحي، وبما أن أدب الرحالة باعتباره انتقال ضمن الفضاء الجغرافي والزمن التاريخي وهي انتقال أيضا ضمن نظام اجتماعي والثقافي حاملا لكثير من الخصائص البشر التي تضم في كنفها مختلف عاداتهم وتقاليدهم في التفكير والاعتقاد واللباس والطعام والشراب"[2]

كان لابد لهذه الرحلات من تاريخ يثبت تلك الفترة التي عاشها الرحالة ويبين واقعيتها لهذا نجد ابن حمادوش كان يعمد إلى توظيف التاريخ ويحدد زمن انطلاقه ووصوله من مكان إلى آخر فيقول في هذا النص تحدث فيه عن موعد سفره إلى الجزائر انطلاقا من مرسى تطوان وكان ذلك عام 1157 هجري "وكان يوم الأحد أول يوم من صفر فأقمت هناك ليلة الاثنين والثلاثاء والاربعاء إلى آخر النهار طلع بقية أصحابنا فبيتنا ليلة الخميس مهيئين مسافرين لأن سفرنا عند غروب الشمس ليلته إلى الأولى ساعة من اليوم الاثنين التاسع من الشهر المذكور موافق ثاني عشر من مارس دخلنا مرسى الجزائر"،[3] من خلال هذا النص يبدو أن أغلب أحداث أو الرحلات قد دارت في زمن الصباح والمساء وحتى الليل وفي ذلك دلالة أخرى على اهتمامه الشديد بالدقة في تحديد عامل الزمن وبذلك استطاع ابن حمادوش أن يحتوي عنصر الزمن في رحلته من خلال الأهمية الكبيرة التي يوليها له شأنه في ذلك شأن المؤرخ فهو لا يترك شيئا إلا وتحدث عنه انطلاقا من ساعة ويوم وشهر وسنة وهذا ربما ما جعل هذه الرحلة تكسب قيمتها كمصدر هام للباحثين في التاريخ وعلم الاجتماع كما أن عنصر الزمن في هذه الرحلة هو الذي كان

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 122

[2] أحمد صانع، الرحلة بين الأدبية والإثنوغرافيا مقاربة في نصوص رحلية، المرجع السابق، ص 166

[3] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر السابق، ص 113-114

يربط بعضها ببعض نظرا لعدم التزام مؤلفها بالتسلسل في ترتيب الأحداث فيها حسب وقوعها فعلا.

ب.المكان:

للمكان كما نعلم علاقة قوية بالشخصية أو الشخصيات التي تتحرك داخله وتتفاعل معه ومع من فيه، فالإنسان قادر على أن يحرك المكان ويشكله بخصوصياته فقد يجعله ايجابيا ظاهرا تطمئن له القلوب وتتعرف إليه النفوس وقد يجعله مكانا سلبيا غير محببا لغيره وبما أن الرحلة تعني السفر والتنقل من مكان إلى آخر لهدف معين إما ديني وإما علمي أو غير ذلك فلا بد لها من مكان هذه الأمكنة التي يعمد الرحالة على وصفها وإيراد الحديث عنها في رحلته وإبراز الحالة الاجتماعية والعلمية والتجارية للمكان الذي زاره كما "أن من جماليات النص الرحلي استهلاله بحديثه عن المكان المزار بالاعتبار أن الاستهلال مقدمه تعمل على تشويق القارئ أو لفت طرفه لجلبه أكثر ومعايشته التجربة الرائعة والرائقة التي عاشها الرحالة حيث تؤكد وعي الرحالة (الكاتب) بعدم تخيبه لقارئه"،[1] ورحلة ابن حمادوش كغيرها من الرحلات كان لها مكان الانطلاق ومكان الوصول فمن هذين الموضعين شكل ابن حمادوش لرحلته جسرا حاول وصفه من كل النواحي ووصف عادات وتقاليد أهله حتى يقدم للقارئ تصورا للمكان الذي حط به رحاله وتثبت واقعة الرحلة إن ابن حمادوش من خلال وصفه للأمكنة التي زارها في رحلته هناك أمكنة تجعل القارئ يدركه أن هذا المكان هو مكان ايجابي من خلال اعجاب ابن حمادوش به وبأهله وهناك أمثلة تجعلك تدرك أنها سلبية من خلال استقباح الرحالة له ولكل ما شاهده به.

[1] عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث، سياق النص وخطاب الانساق، المرجع السابق، ص 153

*** المكان الايجابي:**

إن ايجابيات المكان أو سلبياته لا يمكن أن تتحد إلا من خلال نظرة الرحالة إليه وإلى القاطنين فيه انطلاقا من طبيعة العلاقة التي جمعتهم به وما وقع له في المكان معهم هذا يعني أن هذه القيمة لا يحددها المكان ذاته فهذا المكان قد يكون من أروع المكان إلا أن الرحالة يضيفه في خانة السلبي تبعا لما يحدث فيه من أفعال وما يقال فيه من أقوال فالمكان يتأثر بأهله وقاطنيه سواء الحكام منهم أو المحكومين.

إن الأماكن التي ظهرت في هذه الرحلة الموسومة بلسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال هي أماكن واقعية معروفة بمواقعها وأهلها وكل ما يتصل بها وليست أماكن في العالم اللاوجود أو خيالية ومن بين هذه الأماكن التي قام الرحالة بالحديث عنها هي المدن المغربية التي أخذت جزءا كبيرا من رحلته باعتبارها المكان الهدف من الرحلة فنلاحظ بأن ابن حمادوش كما يدقق في وصف المدينة وكل ما يحيط بها فيبدأ بالحديث عنها منذ انطلاقه إليها حتى لحظة الخروج منها والتوجه إلى مكان آخر ومن بين أهم المدن مدينة تطوان المغربية التي كان من بينها ومن بين أهم المدن التي استلطفها الرحالة وأعجب ببعض ما شاهده فيها ويقول في هذا الصدد "وفي يوم السبت صنع العيد الأضحى بغته وكان مطر غزير والسحاب[1] ليله ونهاره إلى الضحاء أنت بينه وبين طنجة فصنع العيد وذهبنا إلى المصلى... وخطب بنا إمام نسيت اسمه هو عظيم جامع القصبة".[2]

وهنا كان ابن حمادوش يتحدث عن عادة أهل تطوان في قضاء يوم عيد الأضحى والظاهر أن ابن حمادوش أعجب بكيفية احتفالهم بهذه المناسبة الدسة والظاهر أن

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر السابق، ص 107

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 107

المغرب استحوذ على اهتمام ابن حمادوش حيث نجده كثير الحركة والتنقل فيه وبالاتصاله المباشر بالطبيعة والناس ولم يترك شاهده أولا حظه فيه إلا وتحدث عنه وهذه المرة يحط الرحال بمدينة فاس المغربية فيقول "خرجنا من فاس فظلل سائرين إلى آخر النهار فنزلنا بدوار عرب" [1]ولم يكتفي ابن حمادوش بالحديث عن المدن والقرى التي حط بها والتي تعتبر أماكن مفتوحة وانما تحدث أيضا عن المجالس التي أخذت حيزا كبيرا من رحلته باعتباره كان يتردد عليها للاستزادة من العلم والمعرفة وغالبا ما كان يعجب بها فيقول عن مجلس الحكيم عبد الوهاب أدراق "ثم أني جالس معه في مجلس حسن كأن له مجلسا من مجالس الملوك، بيت في الرياض من نواور شتى ونارنج وعنبر"[2] لقد جعل ابن حمادوش من هذا المجلس الذي يمثل مكان مغلق في الرحلة مكان ايجابيا تفنن الرحالة في وصفه وهذا إن دل على شيء انما يدل على شدة اعجابه به وبأهله وشيخه عبد الوهاب فقد أعجب الرحالة بالمكان وبأهله ما يدل على أن المكان له علاقة مباشرة بالشخصية وتربط بينهما علاقة تكامل فلما كان بدون شخصية ولا شخصية بدون مكان.

وبما أن الرحلة تعتبر نصا سرديا "يتركب من مؤلف هو الذي يكتب عمله السردي وشخصية أو شخصيات ثم قارئ يأتي بعدها منفصلا عنها زمانا ومكانا"[3] فكان لابد على ربط كل هذه العناصر فيما بينها باعتبار أن هذه الرحلة فنا أو جنسا أدبيا كغيرهما من الأجناس الأخرى كان لابد لها اتباع مخطط للكتابة السردية التي عمد عبد الملك مرتاض على إعطاء رسم له يجسد هذه العملية ويوضحها حتى يسهل على الملتقي فهمها.

[1] ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر السابق، ص 78

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص 82

[3] عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنية السرد، المرجع السابق، ص 235

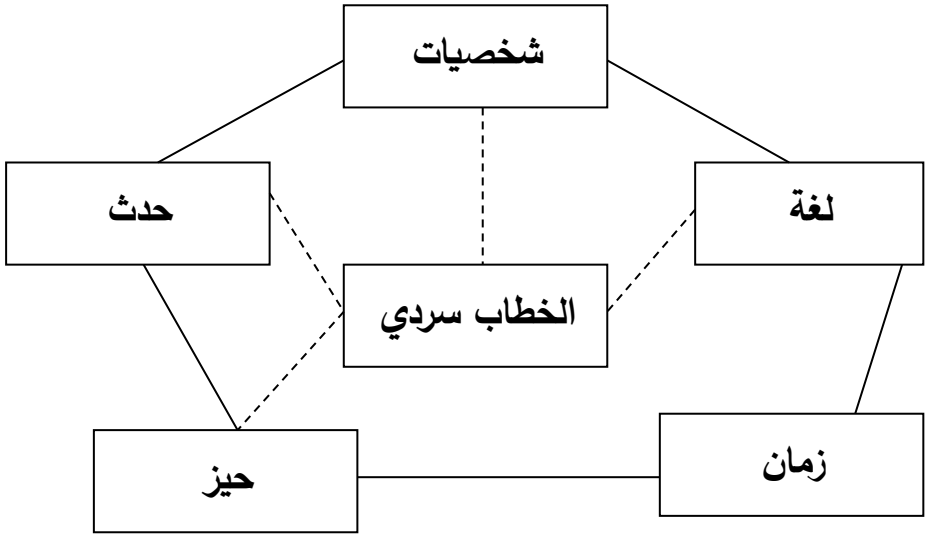

[1]

ألم ابن حمادوش بكل هذه المكونات من بينها الحيز الذي يمثل المكان أو الموضع الجغرافي الذي وطأته أقدام الرحالة والتي كان يعمل على تقديم صورة حية وواقعية له تجعل القارئ يحس وكأنه يعايش ويتعايش مع هذا المكان.

*** المكان السلبي:**

لا ترتبط سلبية المكان بالمكان في حد ذاته بل تعود إلى الأشخاص القاطنين فيه، وينعته الرحالة بالمكان السلبي لما صادفه من أشياء وأحداث لم ترقه ولم تنل إعجابه وربما قد يكون تعرض في هذا المكان إلى الظلم والإهانة فتهان كرامته أو يسرق ماله وهذا ما يجعله يهجوه ويهجو من فيه، وفي هذه الرحلة نجد ابن حمادوش ينتقد عادات بعض سكان المدن التي زارها أو يبدي اشمئزازه من بعض ما شاهده في بعض الأماكن التي زارها ما يجعلك تحس بأن الرحالة لم يستحسن النزول بذاك المكان ومن بين هذه المدن التي لم يستلطفها ابن حمادوش وهذا من خلال عدم استلطاف ما لقاه من أهلها من معاملة لم ترقه أو عادات وتقاليد لم تعجبه ويقول في هذا الصدد "من أقبح ما في المغرب

[1] ينظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنية السرد، المرجع السابق ، ص 236

كله حماماتهم ويبدون عوراتهم فيها"[1] فهذه العادة السيئة تورد في ذهن القارئ أن المغرب بلد لا يموت بالأصالة والعروبة بشيء وبأن التبرج ظاهرة عادية عند أهله ما جعلت الرحالة يذم هذا المكان وبما أن الرحلة هي فن مكاني بامتياز فقد وجد الرحالة نفسه مضطرا لأن يقف وقفات مع العديد من الأمكنة فقدم لها عن طريق الوصف صورة حقيقية واقعية، فمثلا عندما حط الرحال بمدينة تطوان المغربية رأى عاد من قبل أهل المدينة لم يستحسنها ما جعلت المكان لا يروقه فقال فيما رآه وكانت عادة قبيحة بتطوان ابتدعوها إنهم يأخذون كل ما معك ويحملونه إلى دار العشر، ثم بعدها تنقض أشغالهم من البحر تأتي العدول التي كتبت في البحر فتقابل كتابها مع العدول الذين بدار العشر... ثم يتخلصون إلى أكل أموال الناس بالباطل"[2]، إن هذا الوصف لهذه العادة البيئة لأهل تطوان تجعل من المكان نفسه مكانا بيئيا، يترك الرحالة من خلال هذا الوصف تصورا للمكان في ذهن القارئ، لأن صورة المكان ترتبط بسلوكيات أهله، وبما أن الرحلة في السفر والانتقال من مكان إلى مكان فكان لابد على الرحال أن يتجاوز وصف الأماكن التي يحط الرحال بها يصف عادات القاطنين بهذا المكان، يورد ما استلطفه وما استفتحه حتى يرسم من خلال رحلته صورة جلية للمكان الذي وطأته قدماه بعيدا عن الخيال والوهم.

4. الأنا والآخر في الرحلة:

إن السفر جامعة "تحفل بالدروس والعبارة وتحتشد بالعلم والمعرفة وتشحد العقل والوجدان وتزيد في الفهم والإدراك وتصقل الشخصية بفضل التجربة وراهبة المغامرة

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 94

[2] ينظر المصدر نفسه، ص 31

وطلعة الجديد في كل شأن ومواجهة المفاجآت وتحمل مشاق الغربة والسفر والاطلاع على الطبائع المختلفة والاعتماد على الغريب والتمرس بمعاملته.[1]

وبما أن الرحلة تغنى السفر والسقل فالرحالة لا يذهب إلى مكان معزول خال من الناس بل سقل إلى أمكنة وبلدان معمورة حتى يلتقى بالآخر ومعرف عليه ولكي يتمكن الرحالة من تقديم صورة على المكان فلابد له من الاختلاط بقاطنيه حتى يستطيع أن يرسم صورة حقيقية له وللموقع الذي ارتحل إليه، وهنا كان لابد للرحلة أن تحتوي على تلك الصورة التي يمثل الأنا الذاتية والآخر" وتعد الرحلة من عمومها الظاهرة من ظواهر من الكتابة التي تتجلى فيها الذات حاسرة من أجل تجليه المتفق والمختلف بين الأنا والآخر أو الهنا والهناك في مقابلة للمقارنة أو الموازنة"[2] أو رحلة ابن حمادوش كغيرها من الرحالات لم تخلو من صورة تمثيل الأنا والآخر، عبر رؤيته الخاصة التي ابتسمت بالموضوعية حيث تجد الصور الايجابية للذات والآخر إلى جانب السلبية.

أ. الأنا:

يستخدم مصطلح الأنا في عدة حقول ومجالات معرفية كعلم الاجتماع والفلسفة وهو علم النفس وغيرها وعرف على أنه تعبير يعني الذات الواعية وقد يستخدم مصطلح لبشير إلى تلك السمة أو ذلك المكون من مكونات الشخصية الذي يسيطر بأكثر الطرق مباشرة وفورية على الفكر والسلوك،[3] وقد تمثل الأنا في الرحلة تلك الشخصية المركزية التي تسيطر على متن النص الرحلي "فهو الأنا التي تشعر وتفكر وتميز الشخص عن الذوات الشخصية الأخرى أي أنها تميز للذات عن الغير وتعد الأنا نقطة مركزية يتحدد من

[1] ينظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة في تراث العربي، المرجع السابق، ص 21

[2] عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث، سياق النص وخطاب الأنساق، مرجع السابق، ص 250

[3] يزيد بودربالة، عبد العزيز بومهرة، الأنا والتمثيل الآخر في رحلة ابن حمادوش، مجلة علوم اللغة العربية وأدابها، مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، قالمة، الجزائر، ص 04

خلالها الآخر أو الهو المفارق للأنا والمختلف عنها وقد يكون هذا الاختلاف في المعتقد أو اللغة أو الفكر أو الجنس وتحديد الأنا مرتبط بوعلي صاحبها لذاته والآخر المقابل له"[1] وعلى هذا الأساس الصورة التي رسمها ابن حمادوش للآخر في رحلته لم تكن صورة تجسد الصراع بين الأنا والآخر بل صورة ابتسمت بالموضوعية صور من خلالها الايجابية لكلا الطرفين كما أنه لم يفعل عن الحديث عن سلبية كل منها بالإضافة إلى نقطة التلاقي بينهما بالاعتبار أن الأنا والآخر في رحلته تجمع بينها لغة واحدة وعرق مشترك وحاملا لنفس الملة فكان لابد لهما أن يلتقيا في نقاط مشتركة.

ب. **الآخر:**

"يشكل مصطلح الآخر معضلة ايديولوجية لا تعتبر بريئة حيث تحد في تميز عنصري بين صفتين مختلفتين فكرا وعقيدة وعرفا وإذا كانت اللغة تقتصر من حيث هو المغاير للأنا، في مقابل أن كثيرا من المفاهيم تذهب إلى أن الآخر هو المختلف عن الأنا ايديولوجيا وعقديا وحضاريا"،[2] ويبقى الآخر هو الطرف المقابل للأنا الذي تعمد الأنا على محاولة معرفته وقرآته من كل الجوانب حتى تستطيع أن ترسم له تلك الصورة التي تحاول الوصول إليها.

"إن البحث عن خصوصيات المجتمع الثقافية ومميزات حياته ونمط معيشته القائمة على عادات وتقاليد يقودنا إلى اكتشاف عالم غريب عجيب من القيم والمنظومات التي تحتاج إلى الوقوف عندها بالدرس".[3]

[1] يزيد بودربالة، عبد العزيز بومهرة، الأنا والتمثيل الآخر في رحلة ابن حمادوش، المرجع السابق، ص 04

[2] عيسى بخيتي أدب الرحلة الجزائري الحديث، سياق النص وخطاب الأنساق، مرجع سابق، ص 259

[3] أحمد صانع، الرحلة بين الأدبية والاثنوغرافية مقاربة في النصوص رحلية، المرجع سابق، ص 164

هذا العالم الذي يجعله الرحالة يعترف على هوية الآخر والتعرف على أسلوب حياته، حتى يقوم الرحالة بالمعاينة الشخصية عن طريق الملاحظة المباشرة والمعاشرة حتى يتمكن من تقديم صورة واقعية للآخر حقيقية بعيدة عن النزيف أو المجاملة وهذا كله يساهم في الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر والانتباهات التي ميزت نظرة الرحالة إلى الدول والناس والأفكار.

4.1 الأنا والآخر المغربي في رحلة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال:

لقد انتقل الرحالة ابن حمادوش من الجزائر إلى المغرب الأقصى في القرن الثاني عشر للهجرة طلبا للعلم والمعرفة والتجارة.... وأثناء تواجده فيه رصد مجموعة من الأخلاق والعادات والمشاهد المختلفة التي ميزت الآخر المغربي المرتحل إليه.

"فقد صور ابن حمادوش في رحلته الآخر المغربي ايجابا وسلبا حيث حاول أن يقدم صورة عن طبيعته ونمطه في الحياة فوصف بعض عاداته وتقاليده، كما وصف الحياة العلمية والتي تجلت في نماذج عدة من علماء تلك الحقبة الذين أخذ عنهم وقرأ عليهم طلبا للإجارة"،[1] وتجدر الإشارة على حصر الآخر في الحديث عن الآخر المغربي دون غيره يرجع إلى كون ابن حمادوش الجزائري استغرق جل سرده الرحلي حول هذا الأخير، فالمغربي كان آخرا محوريا رئيسيا بنى عليه حكيه ولم يتطرق إلى آخر عداه إلا بصورة عابرة واكتفى بالحديث عن الآخر النصراني واليهودي والعثماني التركي بايجاز ولم يبد أي موقف منهم ولا أي علاقة معهم لأنه لم يحتك بهم احتكاكا واضحا".[2]

[1] فريدة مقلاتي، صورة الآخر المغربي في رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، مجلة اشكالات في اللغة والأدب، مج8، العدد 4، الجزائر، 2019، ص 449

[2] يزيد بودربالة، عبد العزيز بومهرة، الأنا وتمثيل الآخر في رحلة ابن حمادوش، المرجع السابق، ص 08

إن الآخر المغربي لم يمثل النقيض بالنسبة لذات ابن حمادوش باعتبار هذا الأخير لينتمي إلى نفس ديانة الرحالة حامل لنفس العرق له لسان عربييتفق مع ذات الرحالة ومجتمعه الأصلي في العديد من النقاط كالعادات الاجتماعية والأحوال السياسية وغيرها، وهناك اختلاف أيضا في أمور شتى.

*** الآخر اجتماعيا:**

لقد تطرق ابن حمادوش إلى الحديث عن بعض الظواهر الاجتماعية التي رسم من خلالها صورة نمط الحياة الاجتماعية في المغرب كالحديث عن الرسوم والضرائب التي فرضت عليه وهو متواجد في مدينة تطوان المغربية حيث يقول: "فيفتحون كل ما معك ويأخذون خمسة لكل مئة مكبسا وتدفع من يدك زائدا على الخمسة أجره العدول والعساس والحمال والقوافي"[1] وهذه العادة التي تعرف بالمكس هي عادة استقباحها الرحالة وكان يرى بأنها عادة سيئة تهدف إلى أكل أموال الناس بالباطل وهذه العادات السيئة جعلت ابن حمادوش لا يستطيع الاندماج مع الآخر المغربي اندماجا ينسيه آلام البعد عن أهله ووطنه ويقول في هذا الصدد "رجعت كئيبا محزونا لقلة الذات يدي لأن كل ما عندي سلعة كاسدة لا يمكن أن يؤخذ منها خبرة وكثرة المطر وقلة ما بباع واشتغال الناس بشؤونهم واجتماعاتهم وغربتي قللت منشدا".[2]

لقد كنت قبل اليوم أصبر صابرا وها أنا في هذا الأوان ذليل

وهذا أن دل على شيء إنما يدل على أن الرحالة كان قد لاقى العديد من العوائق والصعاب التي أرقته وأتعبته أثناء رحلته.

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر السابق، ص 97

[2] المصدر نفسه، ص 99

*** الآخر دينيا:**

حرص ابن حمادوش على تصوير الآخر المغربي في جانبه الديني فتحدث عاداتهم في احتفال بالمناسبات الدينية كاحتفالهم بالمولد النبوي الشريف "وفي ذهابي لقيت الطبالين والعياطين وآلات الطرب كلها في السوق ذاهبين بأربعة قباب من الشمع كل واحدة من لون..... أخف مما يجعل في الجزائر عندنا"،[1] بين الرحالة طريقة احتفال الآخر بالمولد النبوي ثم يقارن ذلك بالاحتفال الجزائريين في الرحالة مهما تغرب عن وطنه يبقى يستحضره ويحاكم الآخر بثقافته الأم فيظهر التقابل صراحة بين الأنا والآخر فتتكشف خصوصيات وميزات كل طرف، ولم يكتفي بالحديث عن كيفية احتفال المغربي بالمناسبات الدينية حتى يجسد سلوكهم من الناحية الدينية وإنما يحدث أيضا عن علماء المغرب الذين يجسدون الاتجاه الديني في المغرب فراح يتحدث عن العلماء المغاربة الذين أخذ عنهم وقرأ عليهم طلبا للإجازة، فقدم لهم صورة موضوعية تتراوح بين السلبية تارة والايجابية تارة أخرى وها هو يصف الشيخ العربي بن أحمد بردلة قائلا في حقه شيخنا الفقيه العالم النبيه، العلامة النزيه المحدث المفسر النحو المحقق المدقق القاضي الأعدل الموفق الإمام المفتي الخطيب البليغ كان..... آية في التبحر في العلم والصرف فيه واستحضار النوازل الفقه وقضايا التاريخ"،[2] نلاحظ أن ابن حمادوش رسم صورة ايجابية لهذا الشيخ المبارك الذي كان يمثل رجال الدين في المغرب، كما تحدث ابن حمادوش عن الشيخ الفاضل الذي شديد الإعجاب به وبدرجته العلمية ألا وهو العالم الفاضل الشيخ أحمد بن المبارك فيقول "وفي هذا اليوم لقيت سيدي أحمد بن المبارك، لقيت رجلا عظيما عند كافة أهل البلد خفيف النفس، حلو المنطق، نحيف الجسم، حسن الملاقات، فسألته

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 96

2 المصدر نفسه، ص 80

القرآة ففرح بذلك فرحا شديدا"،[1] إن كثرة علماء الدين بالمغرب تدل على أن هذا البلد كان بلدا مهتما بالدين، كان مهدا للعلم والمعرفة، ما جعل الرحالة يجعله قبلة لرحلته.

الآخر سياسيا:

لقد صادف الرحالة ابن حمادوش بالمغرب قيام ثورة هناك بين حاكم تطوان أحمد الريفي والسلطان مولاي عبد الله، فحرص على توثيق هذه الحرب الأهلية فقال واصفا هذه الفتنة" إنهم أنسوا الفتنة والهرج ونحن قريب من المرج وقع قتال بين العسكرين وذلك أن الباشا أحمد بن عبد الله الريفي كثر ماله وتحبر في نفسه وطغى على عباد الله حتى قرر المكوس كأنها سنة ثم من تجبره أراد أن يدعي السلطة لنفسه"[2] فصاحب الرحلة هنا يسرد لنا الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة في المغرب حيث أن الريفي تحبر وطغى في الأرض وكثر ظلمه للناس حتى قرر الضرائب وأراد السلطة لنفسه، وفي هذه الثورة نلمس أن ابن حمادوش انتصر للسلطان مولاي عبد الله لأنه كان يرى أنه هو صاحب الحق، إن هذه الحرب كان لها وقع سيئة على نفسية الرحالة فيقول "وكان أشد يوم علي وعلى أصحابي بفاس الجديد دخلناها لما كثر الهرج فسلمنا والحمد لله..... بعد أن اختطف لبعض أصحابنا عمائمهم وردت إليهم.... كأننا كنا بثغر من ثغور الخوف"[3] وعليه في الرحالة صور تردي الوضع الأمني للآخر المغربي في هذه الفترة التي شهدت صراعا على السلطة كما تحدث عن مخلفات هذه الحرب فقد كسدت سلعته وتعطلت كثير من أمور الحياة وألفت هذه المحنة بضلالها عليه وربما هذا ما جعل بعودته إلى الجزائر فراح بحمد الله على عودته سالما بقوله "وحمدت الله على خروجي من المغرب"[4] وربما هذا

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص 83

[2] المصدر نفسه، ص 86

[3] المصدر نفسه، ص 125

[4] المصدر نفسه، ص 127

دليل على أن هذه الرحلة ربما تركت آثارا سلبية عليه جعلته يشكر الله على مفارقته هذا البلد.

2.4 الآخر النصراني واليهودي والعثماني التركي في رحلة ابن حمادوش:

لقد مثل الآخر المغربي في هذه الرحلة الشخصية الأساسية أو الآخر الأساسي وبالمقال كان هناك آخر ثانوي ممثلا في النصراني المقابل لذات الرحالة المسلم إذ أشار ابن حمادوش إليه بشكل موجز دون الوقوف على التفاصيل التي تمثلته، فمثلا تطرق إلى رفض النصارى اقتداء بعض الجزائريين قائلا "جاء أوراق من بر النصارى وأنهم لا يريدون فداء المسلمين وخصوصا الحاج موسى ونظراته من الرؤساء المشتهر أمرهم، فغضب أميرنا إبراهيم باشا صانه الله وحلف أن لا تبقى كنيستهم في الجزائر وكانت لهم كنيسة عظيمة[1] كما سجل ابن حمادوش في رحلته صورة عابرة عن الآخر اليهودي كان حضورا ثانويا أيضا كمقابل الأنا الرحالة العربي المسلم فيقول "بلغنا المغرب ابن المسراتي أنه هرب لوهران وهي في يد النصارى بسبب أو شكله ذمي كان هنا يخدمه حتى حاز تحت يده مالا كثيرا، بعث له اليهودي أن فر بنفسك"[2] إن النص الرحلي سن من خلاله الرحالة تواجدا لليهودي في أرض الجزائر لكن ابن حمادوش اكتفى فقط بالإشارة إلى هذا الآخر بشكل مقتضب ولو تحدث عنه بإسهاب لسنحت لنا الفرصة لمعرفة طبيعة العلاقة بين الطرفين.

[1] عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر السابق، ص 107

[2] المصدر نفسه، ص 107

خاتمة

تعتبر رحلة ابن حمادوش الجزائري "اللسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" جزءا هاما من تراث الجزائر والمغرب، لأنها كتبت في عهد العثماني.

فهي تزخر بالمعلومات الكثيرة سياسيا وفكريا واجتماعيا واقتصاديا عن عصر مؤلفها ومعاصريه، كما أنها مصدر هام عن حياة الكاتب نفسه ما جعل الباحثون يهتمون بهذه الرحلة.

إن الغاية التي تسعى إليها من خلال دراستنا لهذه الرحلة هي التقرب أكثر من هذا المنجز الرحلي، للتعرف أكثر على شخص مؤلفها وعصره ومعاصره فتوصلنا من خلال هذه الدراسة المتواضعة إلى مجموعة من النتائج.

فالفصل الأول المعنون بأدب الرحلة في العهد العثماني كانت النتائج التي توصلنا إليها كالتالي:

- بروز عدة أنواع من الرحلة في هذا العهد وفي مقدمتها الرحلات الحجازية والرحلات العلمية.
- أن جميع الرحلات هذا العهد نحس فيها بنبرة الهوية والانتماء إلى الوطن، من خلال توظيف الواعي للرحالة لألفاظ والتعابير دالة على ذلك كالتعبير الصريح بالجزائر الدعاء لها بالخير والصون.
- تبلورة الصورة الدينية والحس الصوفي في معظم الرحلات خاصة الحجازية وهذا نتيجة لشوقهم للبقاع المقدسة وحبهم لنبيهم المختار.
- اهتمام ابن حمادوش بكل ما هو علمي من طب وصيدلة وعلم الأعشاب إلى غيرها من العلوم وهذا ما برز في هذه الرحلة بشكل واضح.

وهذه النتائج سمحت لنا بإمكانية التعرف على طبيعة الرحلة في العهد العثماني.

أما الفصل الثاني المعنون ب"مضامين الرحلة" فقد كانت النتائج التي توصلنا إليها كالتالي:

- تناول ابن حمادوش في رحلة موضوعات مختلفة فجاءت هذه الأخيرة تحفل بأخبار العلماء والأدباء الجزائريين والمغاربة على حد سواء كابن عمار ابن ميمون والشيخ أحمد الوزري والشيخ أحمد بن المبارك، كما ضمن ابن حمادوش رحلته كل مشاهداته، فكان يسجل كل ما يصادفه كالحديث عن الغرائب اهل المغرب وعوائدهم متقاليدهم كالحديث عن عادة المكوس أو طريقة احتفالهم بالمولد النبوي
- لجوء ابن حمادوش إلى مقارنة عادات أهل المغرب وأهل الجزائر والتي كانت في الغالب تجمع بينهم نقاط مشتركة.

أما الفصل الثالث والأخير الموسوم ب: التشكيل الفني للرحلة في لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال الذي تواصل فيه الكشف عن خصائص السردية للرحلة والمتمثلة في طريقة الحكي والحوار والوصف بالإضافة إلى دراسة مختلف الفنون النثرية الموظفة في هذه الرحلة وصورة الأنا والآخر المصورة في هذا المنجز الرحلي، فقد كانت نتائجه كالتالي:

- الحوار الذي وظفه المؤلف ساهم في التعبير عن نفسية الشخصية تعبيرا ملائما للمواقف التي عالجتها الرحلة وأعطانا صورة عن شخصية ابن حمادوش الجريء الذي لا يهب المناقشة ولا يخاف لومة لائم.
- توظيف الوصف في هذه الرحلة عمل على تحديد وتوجيه مسار السرد من خلال وصف الشخصيات والأماكن وكل ما كان يشاهده الرحالو ويصادفه.

- اعتماد الرحالة على عامل الزمن في السرد فالزمن بالنسبة للرحلة هو قلبها النابض حيث نجده يرتبط بالمتن ارتباطا وثيقا.
- جمع ابن حمادوش بين النثر والشعر، فتنوعت أغراض الشعر من مدح وهجاء إلى غير ذلك أما النثر فقد خاص بالمقامات والرسائل والتقاريظ.
- اعتماد المؤلف على اعطاء صورة الأنا والآخر الذي مثل المغربي صورة جمعت بين السلبية تارة والايجابية تارة أخرى بالرغم من النتائج التي توصلنا إليها إلا أن هذه الرحلة تبقى جديرة بالدراسة والتحليل المعمق لأنها تمثل جزء هاما في تاريخ أدب الرحلة الجزائري والعربي وإلا فيبقى القصد النبيل والسعي متواصل لنفس الهدف ولله الحمد والشكر أولا وأخيرا.

قائمة
المصادر والمراجع

❖ **القرآن الكريم: برواية ورش- عن نافع**

أولا: المعاجم:

- ابن المنظور: لسان العرب، تج عبد الله علي الكبير وآخرون مج 3، ج 18، دار المعارف، القاهرة د/ط
- ابن فارس، مقياس اللغة: تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج2، د.ط، 1979، مادة "الرحل"
- نجم الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشبرازي، القاموس المحيط، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979، مادة "رحل" باب اللام، فصل الراء.

ثانيا: المصادر:

- أبو قاسم سعد الله، رحلة ابن حمادوش المسماة لسان المقال في نبأ والحسب والحال، تج: أبو القاسم سعد الله، ورشة أحمد زبانة، الجزائر، 1983
- عبد الرزاق محمد ابن حمادوش، كشف الرموز في الشرح العقاقير والأعشاب، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996

ثالثا: المراجع:

- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 3، 1990
- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، ط 1، بيروت، لبنان، 2005

- أبو قاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 4، 2005
- أبو قاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، عالم المعرفة، الجزائر ط 1، 2011
- أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر التقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ج2، ط1، 1998
- احمد توفيق المدني، مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار، شركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1974
- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات سلسلة كتب ثقافية شهرية، عالم المعرفة، الكويت، د.ط، 1990
- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1978
- حنيفي هايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط 1، 2008
- سعيد حسن البحيري، علم لغة نص المفاهيم والاتجاهات، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر، 1997
- سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية الموسومة، "نزهة النظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، مكتبة الثقافية الدينية، ط1، القاهرة، 2008
- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة تج علي عبد الواحد وافي، مطبعة لجنة البيان العربي، 1985، د.ط، ج3

- عبد الرحمان عزي، التواصل القيمي في الرحلة الورثيلاني، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، د.ط، 2011
- عبد الرحمان مؤدن، عبد الرحيم بنحادة،السفر في العالم العربي الإسلامي سلسلة ندوات ومنظرات، مشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 2003
- عبد السلام عبد الحكيم العبد، الأدب البياني والقصة العربية في النقد الحديث دط، مؤسسة الشباب الجامعة الإسكندرية، القاهرة، 1989
- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، دط، المجلس الوطني الثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1998
- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط 2، 2002
- محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992، بيروت–لبنان
- مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية، الجزائر، 1981
- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعة المصرية، مكتبة الوفاء، ط 1، 1995
- ياقوت الحمدي، شهاب الدين عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ج2، دار صادر، بيروت، د/ط، 1977

رابعا: الرسائل والمذكرات:

- الطاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني في أطروحة الدكتورة: تحت إشراف العيد جلولي، جامعة الجزائر، في عام 2014
- عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث، سياق النص وخطاب الأنساق، أطروحة الدكتورة، علوم في الأدب الجزائري الحديث، تلمسان، الجزائر، 2016
- مقدم فاطمة، الخصائص السردية في رحلة ابن حمادوش، مذكرة لنيل شهادة الماجستر في اللغة العربية، جامعة وهران، الجزائر، 2010-2011

خامسا: المجلات والدوريات:

- أحمد صانع، الرحلة بين الأدبية والإثنوغرافية المقاربة في نصوص الرحلية، مجلة دراسة المعاصرة، مج 05، العدد 02، بوزريعة، الجزائر، 2021
- حوتية عفيفة، الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني، مجلة روافد للبحوث والدراسات، مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة غرداية، العدد 4، 2018
- خالد التوزاني، مجلة تاريخ العلوم، الأمن الروحي في الرحلات الصوفية المغربية، جامعة فاس المملكة المغربية، العدد الرابع، 2014
- شيماء محمود طه، "المقري سيرته وحياته العلمية"، مجلة الدراسات الملوية، جامعة سمراء، العدد9، 2017

✍ صليحة بردي، فعل الكتابة في تفكير عبد المالك مرتاض النقدي نحو رؤية حداثية للتراث البلاغي، مخبر اللغة الوظيفية، جامعة الشلف، الجزائر

✍ عبد الحميد قاوي، مفهوم الصورة الفنية في النقل الأدبي الحديث، جامعة الأغواط، الجزائر

✍ العيد مسعود، المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد 10، السنة السادسة، افريل 1998

✍ فريدة مقلاتي، صورة الآخر المغربي في رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، مجلة اشكالات في اللغة والأدب، مج8، العدد 4، الجزائر، 2019

✍ يزيد بودربالة، عبد العزيز بومهرة، الأنا والتمثيل الآخر في رحلة ابن حمادوش، مجلة علوم اللغة العربية وأدابها، مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، قالمة، الجزائر

سادسا: المواقع والروابط الرقمية:

✍ www.aqlamhind.com

✍ مكتبة نور

الملاحق

السيرة الذاتية

هو عبد الرزاق بن محمد المعروف بابن حمادوش عاش في القرن الثاني عشر للهجرة الموافق للثامن عشر ميلادي ولد في مدينة الجزائر سنة 1107 هـ الموافق ل 1659، أما تاريخ ومكان وفاته فهما مجهولين إلا أنه مات وعمره تسعين سنة، تقلد بعض الوظائف الدينية وعندما بلغ العشرينات من عمره رحل إلى العالم الإسلامي، وأول رحلة له كانت إلى الحج ثم إلى المغرب الأقصى فالمشرق، وكان والده يعرف بالحاج محمد الدباغ عائلته كانت من الأغنياء إلا أن ابن حمادوش عاش فقيرا لأنه امتهن العلم لا الدباغة.[1]

دراسة ابن حمادوش بالمغرب على يد كل من أحمد الورزري ومحمد البناني، تحصل منهم على اجازات سجلها في الجزء الثاني من الرحلة.

كان معاصرا في الجزائر لعلماء بارزين كأحمد بن عمار وحسين الورتلاني، إهتم ابن حمادوش بمجموعة من العلوم من بينها: الطب، الفلك، كما كتب عن نفسه، وهو في عز شبابه سنة 1945 حيث أصبح طبيبا وصيدلانيا وعشابا كما أنه كان كثير الاطلاع على الكتب الطب قديما والعربية والأجنبية، قرأ ولخص ودرس تأليف "ابن سينا" و"ابن بيطار" كما ألف عدة رسائل وكتب في الفلك فقد وضع تأليفا أضاف فيه ما تعلمه من كتاب عبد الرحمن الفاسي هذا الاهتمام هو الذي جعل مؤلفات ابن حمادوش يغلب عليها الطابع الفقهي أو الأدبي الذي كان لدى علماء عصره ونذكر بعض مؤلفاته أو أعماله في هذا الميدان":[2]

- شرح شرح على قصيدة الربع على كردفر

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 3، 1990

[2] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998.

- تأليف على الرزنامة، تأليف في الأعشاب (لعله هو كشف الرموز المطبوعة)
- تاليف في علم الفلك (ذكر سبعة تواريخ نعلمها جميعا)
- تأليف في الأسطولات والربح المقنطر.
- تأليف في القوس لرصد الشمس
- تأليف من الرخامة الظلية بالحساب
- تأليف في صورة الكرة الأرضية
- تأليف في علم البلوط (معرفة الطرق البحرية)
- الجوهر المكنون (في الطب)
- بغية الأديب من علم التعكيب واسمه أيضا فنسخ المجيب في علم التكعب
- تأليف في علم البنيوية
- تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج
- تأليف في الطاعون

تعلم ابن حمادوش عن طريق الدرس والتجربة والاجازة والرحلة ومن سوء الحظ أن المصادر التي لدينا لا تتحدث عن ثقافته الأولى في الجزائر ولكنه قد صرح فيما بعد أن كل العلوم قد تلقاها بالدرس إلا الكيمياء والسيمياء والموسيقى فقد أخذها بالاجازة.

ومعنى ذلك أنه جلس للدرس في الجزائر وغيرها على مشائخ الوقت أمثال المفتي محمد بن نيكرو، والقاضي مصطفى بن رمضان العنابي، والقاضي الأديب محمد بن ميمون الذي كان يسميه شيخنا من المؤكد أنه درس في المغرب على يد أحمد الوزري.[1]

إن ثقافة ابن حمادوش كانت تقوم أساسا على عنصرين هامين الأول الرحلة والثاني هو قوة الملاحظة والتجربة فقد بدأ الرحلة وهو صغير السن فحج سنة 1130 بالبر عبر

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1998، ص 425

تونس، ولا ندري كم بقي في المشرق هذه المرة ومن لاقى من العلماء في تونس وطرابلس ومصر والحرمين، وما الاجازات والدروس التي حضرها غير أننا نجده في سنة 1145 في المغرب الأقصى حيث جاء في رحلته التي اطلعنا عليها أنه كان هناك عندئذ وأنه كتب قصيدة ليقدمها إلى السلطان عبد الله غير أنه عدل عن ذلك لسبب غير واضح، ولعله يعود إلى خشونة الحجاب أو ضعف الشعر أو خمول الشهرة "وقد اكتفى ابن حمدوش بقوله" أغناني الله عن لقياه" ويبدو أنه كان يتردد على المغرب للتجارة والعلم، فقد وجدناه أيضا هناك سنة 1156 حين أطل فيها الإقامة ووصف نشاطه، فقد درس على عدة مشائخ في تطوان وفاس ومكناس وأجازوه وجلس للتدريس بعض الوقت واشترى وطالع ونسخ الكتب كثيرة، وعاين الثورات السياسية والعادات الاجتماعية والتطورات الاقتصادية في المغرب ووصف وكتب عن كل ذلك، وبعد أكثر من عام عاد إلى وطنه وقد اكتسب علما غزيرا ولكن تجارته كسدت وأوشك على الهلاك كما صرح بذلك، فاكتفى من الغنيمة بالإياب وآخر تاريخ نعرفه عن تحركاته هو سنة 1161، فقيه كان في مدينة رشيد يؤلف رسالته "تعديل المزاج" والغالب على الظن أنه غادر الجزائر للحج أو نحوه في تلك السنة ولا ندري إن كان قد عاد إلى الجزائر أو مات في المشرق.[1]

ورغم أن ابن حمادوش قد تثقف ثقافة معاصريه من لغة وفقه وأدب وتصوف "وتوحيد فإنه كان بطبعه ميالا إلى الكتب العلمية وقد روى أنه درس تأليف القصادي في الحساب، وشرح" محمد السنوسي" على الحباك في الأسطر لاب والقانون والنجاح والطلاسم لابن سينا ومقالات اقليديس، وشرح ابن الرشد على منظومة ابن سينا وتاريخ الدول المطي وهو في أخبار العلماء والأطباء، وكتاب السطي في ذوات الأسماء والمنفصلات، كما ولع بالكتب المنطق وألف فيه وبالإضافة إلى هذه المصادر اعتمد ابن حمادوش على التجربة

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق، ص 427

والمشاهدة، فقد كان يخرج للحبال المجاورة لمدينة الجزائر المجاورة لإجراء التجارب وإلتقاط الأعشاب والتدرب على رمي البونبة ووزنها وبارودها ومسافة انطلاقها.

إن من بين أهم العلوم التي اهتم بها ابن حمادوش خصوصا بالطب والفلك، وألف في ذلك عدة تآليف سنذكرها، وقد كتب عن نفسه وهو ما يزال في شبابه سنه 1145 بأنه أصبح طبيبا وصيدليا وعشابا وافتخر ذات مرة بأنه الأعشاب التي قيدها في تأليفه كلها معروفه لديه، وكان كثير القراءة في كتب الطب القديمة، عربية وأجنبية فقرأ ولخص ودرس تأليف ابن سينا وابن بيطار والأنطاكي وقال عن كتاب الدول للملطي أنه "لم يرى مثله في تركيب العربية وأساليبها فيما عرب من كتب النصارى" ونقل عنه تراجم عدد من الأطباء مسلمين وغيرهم أمثال: الرازي والفرابي والبيروني وابن سهل صاحب بيما رستان جند سابور، والمنجم لأبي معشر البلخي ومحمد بن جابر البناني ومحمد البوزجاني واقليديس وقد أراد أن يؤلف كتابا كبيرا في علم الطب وفروعه فكان "الجوهر المكنون من بحر القانون" الذي يبدو من عنوانه أنه اعتمد فيه على كتاب القانون لابن سينا وقد تحدث ابن حمادوش في رحلته عن هذا الكتاب فقال أنه قد رتبه على أربعة كتب، الكتاب الأول في السموم وذوات السموم والعلاج منها والكتاب الثاني في النزياقات وما يجري مجراها..... وبعض المعاجين التي اضطر إليها والكتاب الثالث في الأمراض بناه على جدول حنين ابن إسحاق أما الكتاب الرابع فقد خصصه لحل ألفاظ المفردات وتعريفها".[1]

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق، ص 429

وصف المخطوطة

توجد النسخة الوحيدة لرحلة ابن حمادوش في المكتبة (الخزانة) العامة بالرباط تحت رقم ك 463 وهي في شكل مسودة فإن هذه النسخة تذكر من البداية بأنها هي الجزء الثاني من الرحلة، ومعنى هذا أن هناك على الأقل جزءا أو أول من الرحلة، غير أنه لم يوجد له أثرا أيضا ويؤكد ابن حمادوش نفسه في الجزء الثاني الذي بين أيدينا أنه قد انتهى من الجزء الأول.

وبما أن النسخة الحالية هي الجزء الثاني فإن فاتحتها "جاءت مقتضية فليس فيها الديباجة المعهودة في التأليف القديمة وليس فيها بيان الغرض من التأليف والدوافع إليه وخطته وسبب اختيار العنوان ونحو ذلك مما جرت عليه عادة المؤلفين فالنسخة الحالية تبدأ بالحمدلة والبسملة والتسلية ثم تنتقل مباشرة إلى اسم المؤلف هكذا يقول عبد الرزاق بن حمادوش، أحمد بن حمادوش.... الجزء الثاني من رحلته"[1] لم يكتب عنوان الرحلة في نفس السطر وإنما توجد إشارة بخط قصير علامة توقف وكتابة العنوان في الحاشية اليسرى للنص، وهو لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال وتوجد تحت عنوان كلمات محاها بعضهم بتمرير القلم الأسود عليها عدة مرات وبذلك لا يمكن الاهتداء إلى معناها ولعلها، عبارات تملك إزالها المالك الجديد للنسخة، وقد تكون هي عبارات تملك الشيخ المفتي أحمد العمالي الجزائري، وان الذي أزالها هو الشيخ عبد الحي الكتاني بعد انتقال النسخة إليه وفي أعلى يسار نفس هذه الصفحة عبارة تمليك واضحة وهي "تملكه الحاج علي ابن الحاج سعيد" وتحت هذه العبارة كلمة "عام؟ " لكن لم نستطع قراءة التاريخ كما أننا لم نستطيع أن نتبين من هو الحاج علي ابن الحاج سعيد، ولعله أحد حظر

[1] ينظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ج2، تحقيق الدكتور أبو القاسم سعد الله، ص 13– 19، د ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1830

المدينة الجزائر، كما أن الحاشية اليسرى من النص تحمل عباراة مكتبة عبد الحي الكاتاني بفاس وكذلك حتم المكتبة العامة بالرباط.

وبعد عبارة الجزء الثاني من رحلته التي سبق ذكرها يستمر السطر هكذا "مبدوءة من أول ليلة الاثنين، فاتح عام 1156 عربية"، وهكذا يتضح أن الجزء الثاني من الرحلة يبدأ بتاريخ محدد هو 1156 ولكن دون أن نعرف المكان الذي كتبه فيه المؤلف، ويصرح ابن حمادوش في نفس الصفحة بأن التاريخ المذكور يوافق افتتاح سنة ثمانية وأربعين من ولادته هو.

أما الصفحة الثانية من المتن فتبدأ بهذه العبارة وفي هذه الساعة كنا على ظهر البحر قريبا من غرناطة وكتان عاشر يوم خروجنا من الجزائر.....، وهذا في الحقيقة هو بداية متن الجزء الثاني من الرحلة هذا عن أول الجزء الثاني من الرحلة أما عن آخر فهو أشد غموضا من أوله ذلك أن الرحلة مبتورة الآخر، ومعنى ذلك أنها تفتقر إلى معلومات أساسية تأتي عادة في الخاتمة مثل تاريخ ومكان الكتابة.[1]

أو النسخ وسعر الكاتب أو الناسخ، وللإشارة إلى كون النسخة هي آخر الجزء أو تليه أجزاء أخرى ونحو ذلك وبالإضافة إلى البتر، هناك اضطراب في المعلومات الصفحات الأخيرة من الرحلة ذلك أن الرحلة تبلغ في حجمها الحالي 278 صفحة وهي مرقمة بقلم الرصاص ولا شك أن الترقيم اضافة المتأخرون، وقد يكون من عمل الشيخ عبد الحي الكاتاني الذي قد يكون أخذ النسخة من الجزائر التي كان يتردد عليها، والملاحظ أن الترقيم الصفحات بالأرقام العربية وهي مستعملة في المغرب الأقصى منذ القديم.

[1] ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر نفسه

وتأتي صفحة 227 التي تحتوي على خطبة عقد زواج وسنعرف أن ابن حمادوش قد أورد بعض النماذج لعقود من هذا النوع والخطبة المذكورة لا تحتوي على أسماء تاريخية بل هي نموذج لكتابة هذا النوع من العقود فلعل هذه الصفحة تابعة لصفحات المتقدمة عليها والتي ضمن مجموعة العقود والتي أوردها ابن حمادوش وبعد ذلك صفحة 228 وفيها كلام يشبه كلام ابن حمادوش وطريقته يبدأ هكذا "ثم يوم الاثنين السابع عشر المذكور ابتدأت تخريج حاشيتي المسماة (كذا) السانح في الحواشي المتن والشارح على الفنية ابن مالك وافتتاحها...."[1] فهل تعبر كلام هذه الصفحة جزءا من الرحلة متصلا بها قبله، لكن ترقيم الصفحات هو الذي سوت ترتيبها، ذلك ما لا نستطيع الحزم به أيضا، أما صفحة 229 فقد جاءت فيها إشارة محيرة ذلك أنه وجد في أعلاها هذه العبارة الحمد لله قاله عبد الرزاق ليلة الاثنين ورابع عشر وعشرين ذي القعدة عام 1161 هجري لكن النص المذكور بعد ذلك في نفس الصفحة الأصل له في نظرنا برحلة ابن حمادوش لا معنى ولاحظ فقد جاءت فيها أبيات تبدأ هكذا: "فانت امرؤ منا خلقت لغيرنا حياتك لا تنفع (كذا) وموتك فاجع وبعدها دعاء لعبد الرحمن الثعالبي في هلاك الظالم، وهو بقلم مغاير تماما، والذي يهمنا في هذه الصفحة التاريخ بعام 1161 فإذا صح أن هذه الزيادة هي لابن حمادوش فإن الرحلة تكون قد غطت الحوادث إلى العام المذكور أي منافسة 1156 إلى غاية 1161.

يبدأ هناك ما يشكك في ذلك أيضا لسببين الأول أن العبارة التي ورد فيها تاريخ المذكور مضافة في الأعلى الصفحة وليس أصلا في النص والثاني أن الصفحة الموالية (230) تذكر حادثة وتؤرخها بعام 1160، فلو كانت اضافة عام 1161 في محلها لما كان هناك داع للعودة إلى عام 1160 بعدها مباشرة والحادثة هي" ناولني هذا لأكتبه الشيخ

[1] ينظر: عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري، لسلمى قال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر نفسه

الفاضل..... عام 1160"، أما بالنسبة للصفحة (278) التي هي آخر الموجود هنا المخطوطة، هو عبارة "شعر حسن" ثم أبيات تبدأ هكذا.[1]

عرج بمنعرج الكثيب الأصغر بين الفرات وبين شط الكوثر أما مسطرة المخطوطة فهي 16 في 12 وتحتوي كل صفحة على حوالي 22 سطرا، وخطها جزائري جيد على العموم وهي مكتوبة بالحبر الأسود والواقع أن كلمة الرحلة يجب أن تطلق على جزء فقط من المخطوطة أي أن الجزء الخاص بالمغرب وهو من الصفحة الثالثة إلى الصفحة 75 هو ما يمكن أن نطلق عليه الرحلة المغربية أما بقية المخطوطة من (الصفحة 7 إلى 278) فهو عبارة عن يوميات ومذكرات المؤلف بينما كان في الجزائر لقراءة حياته العائلية" أخبار قراءة مؤلفاته ونحو ذلك ومع ذلك فإن المؤلف نفسه هو الذي استعمل كلمة الرحلة سواء بالنسبة للجزء الثاني الذي بين أيدينا أو الجزء المفقود وهو ينسبها إلى نفسه فيقول "رحلتي" لكن لم نجد ولوعرة واحدة قد ذكر العنوان (لسان المقال) في ثنايا المخطوطة التي بين أيدينا أما عن الجزء الأول فقد أشار إليه عدة مرات في الجزء الثاني الذي بين أيدينا.[2]

[1] ينظر عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، المصدر السابق

[2] ينظر: المصدر نفسه

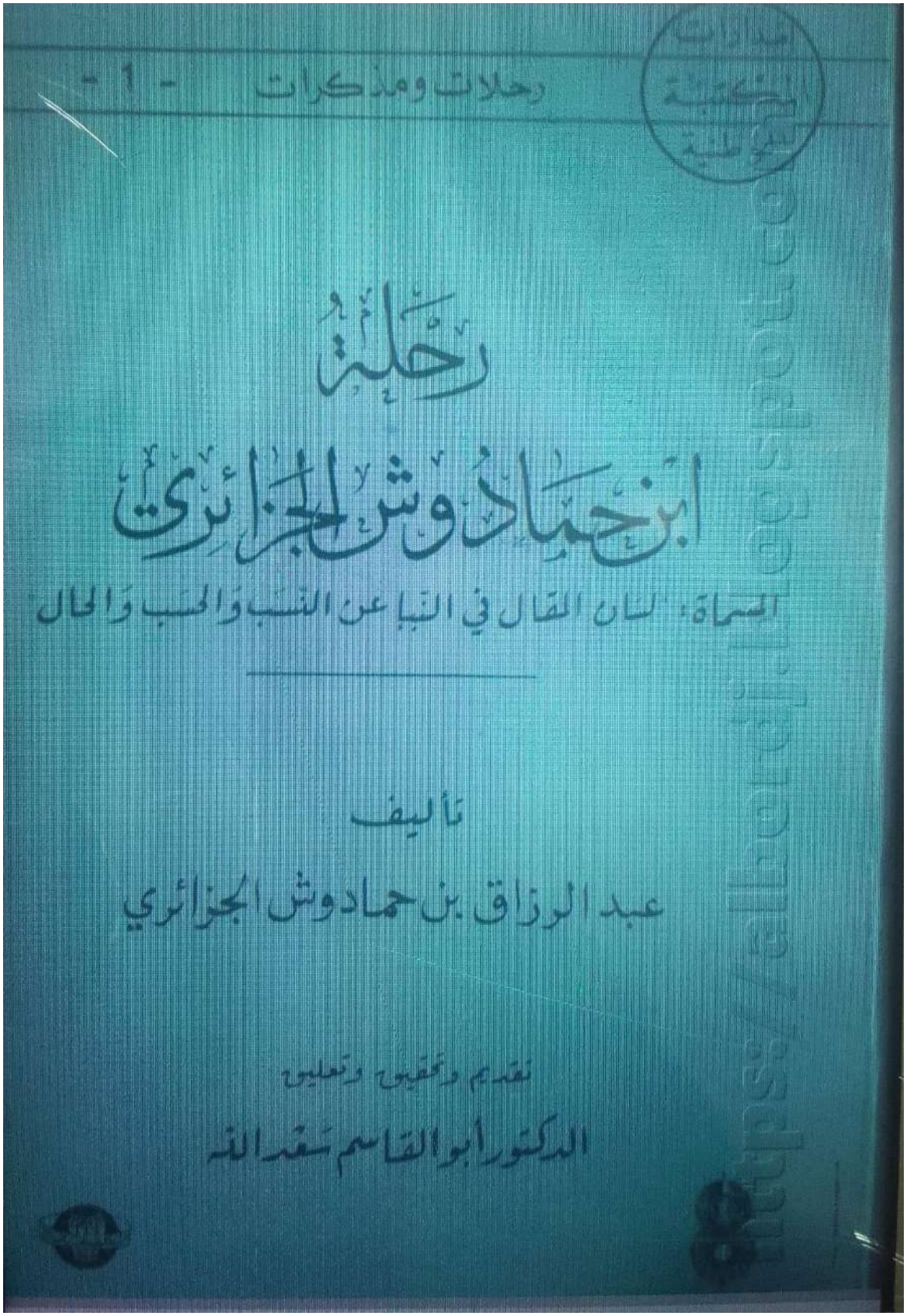
رحلات ومذكرات - 1 -
رحلة
ابن حمادوش الجزائري
المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال
تأليف
عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري
تقديم وتحقيق وتعليق
الدكتور أبو القاسم سعد الله

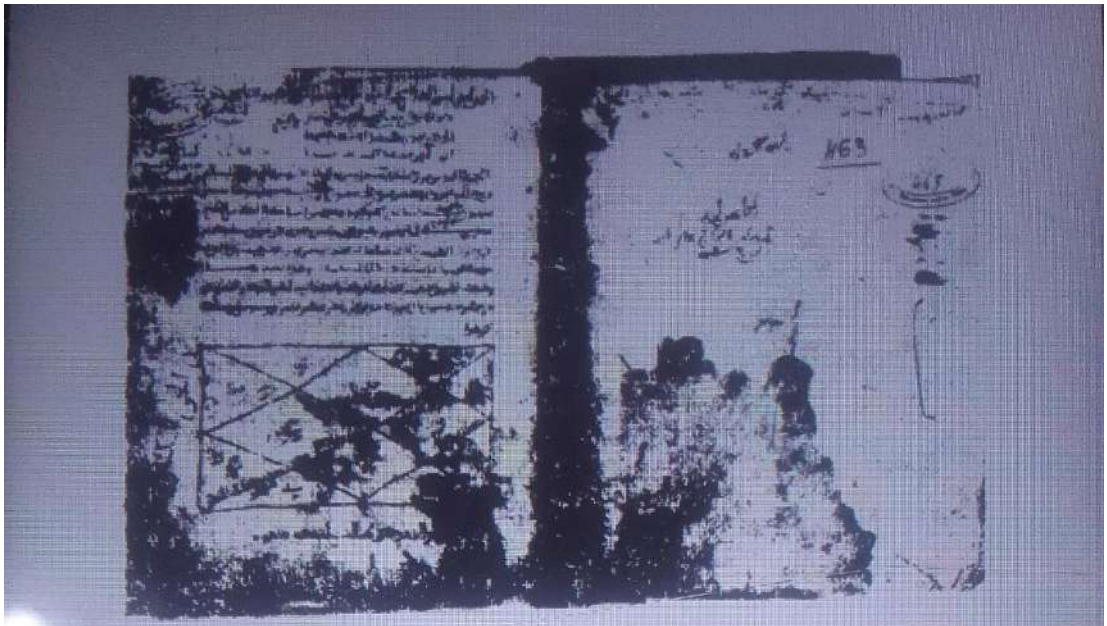

الصفحة الاولى من رحلة ابن حمادوش

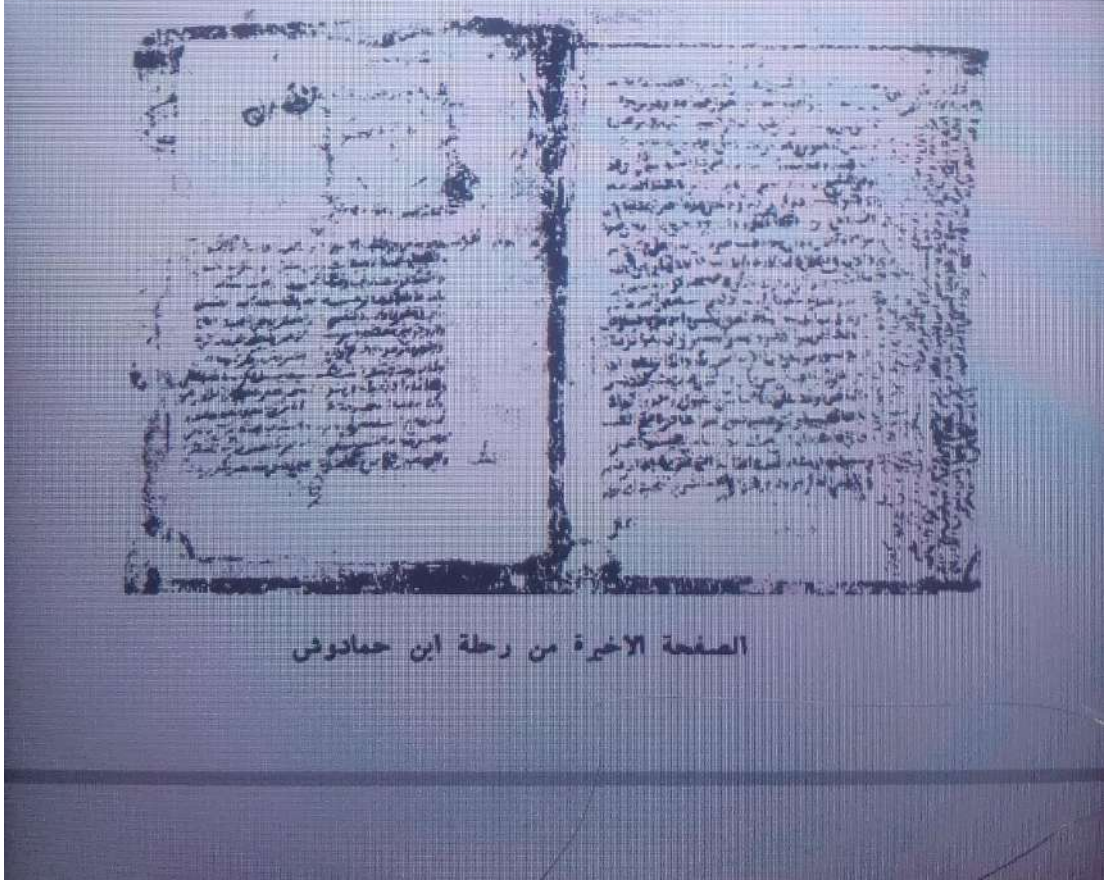

الصفحة الاخيرة من رحلة ابن حمادوش

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
شكر	
إهداء	
مقدمة	أ
الفصل الأول: أدب الرحلة في العهد العثماني	
تمهيد	1
1. المفهوم اللغوي والاصطلاحي للرحلة	1
1.1 الرحلة لغة	2
2.1 الرحلة اصطلاحا	4
2. البيئة الجزائرية في العهد العثماني	6
1.2 الواقع السياسي	7
2.2 الواقع الاجتماعي	8
3.2 الواقع الثقافي	9
3. الرحلات الحجازية والعلمية الجزائرية خلال العهد العثماني	13
1.3 الرحلات الحجازية	13
2.3 الرحلات العلمية	24
الفصل الثاني: مضامين الرحلة في لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال	
تمهيد	29
1. **موضوعات الرحلة عند ابن حمادوش الجزائري**	30
1.1 دوافع الرحلة الجزائرية في العهد العثماني	30
2.1 موضوعات رحلة رسالة في الكرة الفلكية المنسوبة لابن حمادوش	34
3.1 كشف الرموز	36
4.1 تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج	40
2. **لقاءه بالشيوخ المغاربة**	45
1.2 الشيخ البناني في المغرب	45
3. **العادات والتقاليد**	46
1.3 عادات أهل المغرب	46
2.3 عادات أهل الجزلئر	46

4. الشيوخ الذين أخذ عنهم في المغرب والجزائر	48
1.4 غرائب ما رأى بين تطوان ومكناس	50
2.4 عقود الزواج	51
5. مؤلفاته	53
6. الحوادث في المغرب والجزائر	55
الفصل الثالث: التشكيل الفني في الرحلة في لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال	
تمهيد	58
1. الفنون النثرية في لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال	58
1.1 المقامات	58
2.1 الرسائل	62
3.1 التقاريظ	64
4.1 عقود الزواج	66
5.1 الإيجارات	68
2. أغراض الشعر	71
1.2 المدح	71
2.2 الحنين إلى الأهل والوطن	74
3.2 الفخر والهجاء	77
4.2 الرثاء	79
3. لغة السرد في الرحلة	81
1.3 طريقة سرد الأحداث	82
2.3 الوصف	83
3.3 الحوار	86
4. الزمان والمكان في الرحلة	88
1.4 المكان	88
2.4 الزمان	91
5. الأنا والآخر في الرحلة	95
1.5 الأنا	96
2.5 الآخر	97
3.5 الأنا والآخر المغربي في رحلة لسان المقال	98

4.5 الآخر والنصراني واليهودي والعثماني في رحلة ابن حمادوش	102
الخاتمة	104
قائمة المصادر والمراجع	108
الملاحق	113
فهرس المحتويات	125
الملخص	128

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قبل كل شيء نشكر الأساتذة الأفاضل الذين حظرا معنا في هذه الجلسة العلمية المتواضعة، ونشكر أيضا الأستاذة المشرفة "**حطري سمية**" التي أفادتنا بكل المعلومات المتعلقة بمذكرتنا الموسومة ب: "**مضامين الرحلة وتشكيلها الفني عند ابن حمادوش الجزائري**".

وحتى يكون البحث الأكثر علمية انطلقنا من إشكالية عامة مفادها مضامين الرحلة وبناءها الفني وكانت الإشكالية كالتالي: كيف كان أدب الرحلة في الجزائر خلال العهد العثماني ؟ وما هي أهم موضوعات ومضامين الرحلة عند ابن حمادوش الجزائري ؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية اعتمدنا خطة بحث تتضمن مقدمة: عرضنا فيها الموضوع العام للمذكرة والإشكالية العامة والفرعية، وثلاثة فصول حيث عنونة الفصل الأول ب: أدب الرحلة في العهد العثماني، يليه الفصل الثاني المعنون ب: مضامين الرحلة في لسان المقال، أما الفصل الثالث فكان عنوانه كالتالي: التشكيل الفني للرحلة في لسان المقال.

إن البحث والعناصر التي قمنا بدراستها في هذه الفصول الثلاثة أوصلتنا إلى بعض النتائج التي كانت كالتالي:

- بروز عدة أنواع من الرحلة في هذا العهد وفي مقدمتها الرحلات الحجازية والعلمية.
- جميع رحلات هذا العهد نحس فيها بنبرة الهوية والانتماء إلى الوطن من خلال التوظيف الواعي للرحالة والألفاظ والتعابير الدالة على ذلك.
- تبلور الصورة الدينية والحس الصوفي في معظم الرحلات خاصو الحجازية.
- اهتمام ابن حمادوش بكل ما هو علمي من طب وصيدلة وعلم الأعشاب وغيرها من العلوم وهذا ما برز جليا في الرحلة التي هي محطة بحثية.

إن هذه النتائج سمحت لنا بالتعرف قليلا على طبيعة الرحلات في العهد العثماني أما نتائج الفصل الثاني فقد كانت كالتالي:

- تناول ابن حمادوش في رحلته هذه موضوعات مختلفة فجاءت هذه الأخيرة تحفل بأخبار العلماء وأدباء الجزائريين والمغاربة على حد سواء.

- تسجيل ابن حمادوش كل ما شاهده من غرائب وعاداتهم وتقاليدهم.
- لجوء ابن حمادوش إلى مقارنة عادات أهل المغرب وأهل الجزائر.

أما الفصل الثالث فقد كان كالتالي:

- احتفاء الرحلة بالعديد من الخصائص السردية والمتمثلة في طريقة الحكي والحوار والوصف وصورة الأنا والآخر المصورة في هذا المنجز الرحلي.
- الحوار الذي وظفه المؤلف ساهم في التعبير عن نفسية الشخصيات تعبيرا ملائما للمواقف التي عالجتها الرحلة.
- توظيف الوصف في الرحلة عمل على تحديد وتوجيه مسار السرد من خلال وصف الشخصيات والأماكن وكل ما شاهده الرحالة وصادفه.
- اعتماد الرحالة على عامل الزمن في السرد، فالزمن بالنسبة للرحلة هو قلبها النابض حيث نجده يرتبط بالمثن ارتباطا وثيقا.
- زاوج ابن حمادوش في تناول الموضوعات بين النثر والشعر فتنوعت أغراض الشعر من مدح وهجاء إلى غير ذلك، أما النثر فقد خص به المقامات والرسائل والتقاريظ والقصص وغيرها.